

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190089

UNIVERSAL
LIBRARY

خَلِيجِيَّوْ أُمُّ الْمُؤْمِنِيْنَ

(تَأليف)

(السيد عبد الجيد أفندي الزهرراوي)

مبعوث حماء (سورية)

﴿ نشرت منفردة في مجلة المنار ﴾
« وجمعت منها في هذا الكتاب »

(حقوق الطبع محفوظة)

خَلِيجَتَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ

﴿ تَأْلِيف ﴾

(السيد عبد الحميد افندي الزهراوي)

مبعوث سماه (سوربة)

﴿ نشرت متفرقة في مجلة النار ﴾

« وجمعت منها في هذا الكتاب »

(حقوق الطبع محفوظة)

مقدمة تمهيدية

﴿ أو ﴾

اهداء السيرة

﴿ الى ﴾

(روح والده المؤلف)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَالتَّائِبُ عَلَيْهِ)

وَالشُّكْرُ لَهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ)

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بمجموعهم عمرت القرى
والامصار، وتحركت أفلاك العلوم والاعمال، وتماقت أسلاك الاجتماع
والاحوال، واذا فتحت كتب السير والتاريخ لا تجد ذكراً لمُشر من دخلها
ولا امُشر عثرهم ولا للواحد في الالف، ولا للواحد في ألف الالف منهم
فلماذا يُعني المؤرخون بهذا القليل من بني آدم وبهملون الكثير منهم ؟
ليس بمجيب ما صنع المؤرخون فان الاكثرين من بني آدم متشاكلو
السيرة، متشابهو الحالة والناية، على ما بين سيرهم من التباين، وبين أحوالهم
من التفاوت، وذلك أن حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات
وحسرات في تحصيل ما اشتبهوا أو تمودوه من المطالب جل أو حقر، فإذا
عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التي يمكن أن تكتب كلها
هكذا : « جاءوا الى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معاشهم وعاشوا

خاصين للبالغ وذهبوا غير تاركين أثرا في هذه الدار إلا إن كان ولدًا
على شاكلتهم»

وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر
بالآثار فإن في سيرهم للتاريخ ذخراً من غرائب الاستعداد الإنساني، وبدائم
مظاهره، وجلال ما أثره، وامثلة التفاوت بين أفرادهم، والارتقاء والتكامل
في مجموعهم، بواسطة آحاد من جلته، بذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم،
ويأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم

وأولئك الافراد صنوف: فرسول مبشر، وحكيم مبصر، وكاتب
مفكر، وشاعر مذكر، وفاتح منير، ومخترع محير، وكاشف منور، وباحث
مصور، واجتماعي محور، وشرعي مقرر، ونصاح مبرر، ولساني مفسر،
ومفضل ميسر

هؤلاء الصنف أقطاب التاريخ على أخابهم يدور، وما أثرهم مشاركته
منها يستمد النور، ووراءهم في الذكر يأتي من اشتهروا بمخلق من الاخلاق،
ومن عرفوا في عشيرة بطيب الاعراق، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة
ليست بشيء عند التاريخ إذا لم تؤيد بمآثره. ولولا هذا لتب المؤرخون
في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من
أعمال أصحابها ممن كانوا كباراً في العيون لانهم أبناء أُمّاجد مثلاً وهم لم
تجد لهم همة، ولم تؤثر عنهم منقبة، وبظهر لنا أيضاً أن اعراض التاريخ عن
ذكر من لم تبهر مآثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون
عن عمد أو بالتصادف وذلك لان النفوس انما يفرها بالباقيات الصالحات

تذكر أهلها وتمدحهم ، وانما ينهها عن التحول سرعة انطفاء الخاملين ،
وطول اشراق الباقي ذكرهم في العالمين
نم ان من لهم البافيات الصالحات التي يقون ويذكرون بها هم افضل
الخدمة بالنفوس وانهمض بها الى المكرمات خكاية أحوالهم هي أفضل
مآخذ الاخلاقيين الذين يجتهدون في أن يفهموا قارئهم كيف يتكلم الانسان
وكيف يصير من الاقطاب انقطاب التاريخ

* * *

اللهم اني أستسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا
كنوزاً كثيرة لنفوسنا من سير الأقطاب من آبائنا ، وأستغفر عن زلة
زلها أكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إهمالهم كثيرا من سير الأقطاب
من أمهاتنا ،

لقد علمنا أن الفرق ليس بأكبر في الفطرة بين الرجل والمرأة ،
وليست المرأة بمحرومة من المزايا التي يملو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ،
ذلك أننا نرى لمن عقولا سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهما عظيمة ، وهل
للرجال يتابع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والمهم ؟ . ونرى الاديان
اعتبرت المرأة كالرجل في التكليف بالمقيدة والعبادة والآداب . ونرى
الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل وما زال نصيبها منه
كثيرا وتابعا لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم ثم على
حسب مرتبتها من محيطها . وهذا غير ما نعلمه من فضل بعض الفاضلات

الماضيات اللاتي تصلح سيرهنّ أن تكون هدًى للرجال قبل النساء ،
ولولا تلك الثّلة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللاتي نطمعن أكثر وما
اللاتي نطمعن الآن من الفاضلات بقلائل

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله ولكن العارفين
بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيدة والغرب ،
الترك يعظمون اسمها والعرب ، وفارس والهند ، والافغان والسند ، وفي
أرض الصين تعظم ، وفي الدنيا الجديدة تكرم ، وإذا فتحت دفاتر المؤرخين
عفا الله عنهم لا تجد فيها تحت اسم هذه السيدة الجليلة الا كلمات
يسيرة في ترجمة حالها ، وشرح خلاها ، ولكننا نحن شاكرهم على
هذه الكلمات التي يملأ سناها العقول والقلوب فتتهدي بها على قلتها
الى عظيم أمرها كما يدرك المبحرون عظمة المنار اذا كانت أشمته
عظيمة السطوع

ولقد كنت تفكرت في ان اكفي والدتي بعض المكافاة فتيبت بمد
طول التفكير ان عظيم فضلها عليّ هو أبدي من أن يوفى شيء من
حقه ولكن تراءى لي أنه يسرها أن أعلن للملا فضل جنسها
وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ولم أجده أحسن
طريقة الى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة التي هي
احدى جدّاتها

فن مدد تلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة

حال هذه السيدة أولف هذه القصة الحقيقية والى روح والدني أرفعها
هدية على راحة خشوعي وضعفي ، ومن خزائن رحمة الله ورضوانه
أستنزل نحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة

ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له به لفنة وفائدة فلي حق
أن أرجوه شيئا ولا أرجوه إلا أن يكون مساعدا في اقامة حقوق
المرأة وكرامتها وآدابها . ان النساء أمهاتنا معشر الرجال وعلى حسب
تربيتهم نكون فنطلب من محيطنا أن يهذب بالملم الامهات ويسعى لترقية
مداركهن وآدابهن .



خديجة ام المؤمنين

(مقدمة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن ، وقد كان له دويّ قويّ وأثر كبير في آسيا وأوروبا وأفريقيا وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً الى كلمة البي الذي قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك وفوزهم بهذا الهجوم وانتصارهم وغلبتهم على الأمم وانضمام أمم كثيرة الى عقيدتهم وتكوّن ملكهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلانكي شرقاً وغرباً ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالاً وجنوباً في أسرع ما عرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بفكر كأنه معتاد الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيّه أولئك القوم بسرعة

(٢ خديجه)

جديرة أن نشبها بلمح البصر . وبمضمهم يتلقاه كما هو أي يفهم أنه حادث من أكبر الاحداث الي حدثت في الدنيا ويراها جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر ولدى التأمل نجد هناك جزئين تمّ بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروا من العرب . وبديهي ان أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هذا الفضل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشرف قومه هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداية من فوائد جسيمة أزمعت أن أقدم في هذه الاوراق لمحي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفاً هذه الثرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقارئ على سيرتها ان أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعد على معرفة هذه السيدة الجليلة

*
* *

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجهولة ، وأحوالهم منذ عرفوا مرووفة ، نقف الآن عند هاتين الكامتين ونلتفت قليلا الى مبحث لطيف نخشع فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام انهم يعرفون اصول أمتهم الى أبي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون انهم يعرفون سلاسل اصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يذكر عن تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق ما يروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المحتانات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؟ لا ندري ولكن يلوح لنا انه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

اما الباحثون عن انساب الشعوب فلما يؤسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متقاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد أنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) السامية و (٢) الارياية و (٣) التورانية

وظاهر من هذا انهم لما أرادوا وضع اسماء الاصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقول بمض ما لفق في حكاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل المحققين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا ، ويبقى

الخياطون مستمسكين بما قد حكى لهم من قبل وربما تسلى محب الحقيقة عن احتجاجها برؤية تماثيلها وماتماثيلها الأساطير الاولين اما نحن فترى انه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لانا اذا اشتيننا المعرفة فأماننا مما قد نستطيع معرفته ما تنفذ مراحل أعمارنا من غير ان نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما يجوز ان نطمع فيه

فاذا أردنا الآن ان نعرف العرب فطينا قبل كل شيء ان نربح أنفسنا من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا طمعنا من معرفة ذلك في سائر الامم فلهذا لا حاجة الى ما يذكره علماء الانساب من كوز هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال انى لهم العلم بسام ابي الشعوب السامية وكيف يبني أهل الفن مبادئ على شيء غير معروف بالطرق التي تفيد العلم اليقيني، وما أغنى من يريد ان يعرف جيلاً كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

* * *

يقول المؤرخون ان العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣) مستعربة اما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهب عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد، وحمود، وطسم، وجديس، وجرهم الاولى، واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان، والعرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لا يمجني لان البائدة ليست موجودة حتى تدّ وان كابوا يمدونها لان منها اشتق غيرها فهذه شهادة بأنها لم تبد. وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلاً ولم يذكروا لنا من هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسماً مستقلاً ولم يأتوا بدليل قويم على انه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ما ذكره ان اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها ، فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر اذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسماً مستقلاً هو ثالث ثلاثة أو ثاني اثنين اذا ذكر العرب ؟ لسنا ندري ولكننا نعرف ان هذا من جملة الاقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتفر الاكثرين وهي في الحقيقة لا تصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكترون من حك هذه المشهورات

وانما يعجني جداً في هذا الباب ما روي من ان النبي العربي عليه السلام كان اذا اتسب يقف عند عدنان ولا يتجاوزه ويقول « كذب النساؤون »^(١) ومعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح اما الذي لا يغير النقد من سطوع جوهه شيئاً فهو ان العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي اعلی شأنهم كانوا متفرقين في اقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها سبباً تقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهور ان لقبائل الحجاز أصلاً ، ولقبائل اليمن أصلاً آخر ، وللقبائل به ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين .

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتمتته : قال الله تعالى

« وفرونا بين ذلك كثيراً »

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هو أبو عرب الحجاز غالبا ، وقحطان هو أبو عرب اليمن والعراق والشام غالبا وان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية متشتتون متفرقون ، متقاتلون متذابحون ، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع ، ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية ، ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية ، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم واسننا نعرفهم الا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الازواع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت ان العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم »

نقول اصحاب هذا القول ان العرب لم يكونوا مجهولين ولا مجهولة أخبارهم فاذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ، واذا لم يثق بنقل أشعارهم استطعنا ان نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لان من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لان في مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب ، والديانة المجوسية تعرفهم لان منهم من كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفتهم لان منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا ، وبيع اليهود ما جهلتهم ، والاسفة ما أنكرتهم ، والحضارة قد ألمت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟

ان العرب كانوا معروفين . ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والمصيبة عند التناصر فاذا رجعوا الى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة الى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا . ولا يستبعد من أمة محتاجة الى التناصر وليس لها كسائر الامم كتاب يجمع أخبارها وسير أبطالها ان يعني كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم وأية أمة ممن يرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم . وقد كان الرجل من العرب اذا عظم أمره أو كثرت ماله انفرد بأهله وانتمت اليه الذرية ووضعوا لانفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حظهم من الارتباط بالنسبة الاولى لان لهم عند التناصر حظا منها عظيما

يذكر أحد علماء هذا الشأن ان العرب كانت قبائلهم ارحاء وجماجم فالارحاء هي القبائل التي أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالارحاء على أقطابها الا أن يتجمع بعضها في البرحاء وعام الجذب . والجماجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل ا كتفت باسمائها دون الانتساب اليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكثف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثره عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ما ذكره عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارة بن عدس وذلك انه رأى في منى رجلا على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

فدنا منه وقال له: بمن الرجل؟ فقال «اني رجل من مهرة بمن يسكن الشجر» قال
 يزيد فكرهته ووليت عنه فناداني من ورائي: مالك؟ قلت «لست من قومي
 ولست تعرفني ولا أعرفك» قال «ان كنت من كرام العرب فسأعرفك»
 قال يزيد فكررت عليه راحلتي وقلت «اني من كرام العرب» قال فمن
 أنت؟ قلت «من خضر» قال «من الفرسان أنت أم من الارحاء؟» فعلمت
 انه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا . فقلت بل من الارحاء» قال
 «أنت امرؤ من خندف» قلت نعم» قال «من الارومة أنت أم من الجاجم؟»
 فعلمت انه أراد بالارومة خزيمة وبالجاجم بني اذ بن طابخة . قلت «بل من
 الجاجم» قال «فانت امرؤ من بني اذ بن طابخة» قلت «أجل» قال «فمن
 الدواني أنت أم من الصميم؟» فعلمت انه أراد بالدواني الرباب ومزينة
 وبالصميم بني تميم . قلت «من الصميم» قال «فانت اذا من بني تميم» قلت
 «أجل» قال «فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الاخرين؟»
 فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم
 الآخرين بني عمرو وبني تميم . قلت «من الاكثرين» قال «فانت اذا من
 ولد زيد» قلت «أجل» قال «فمن البحور أنت أم القرا أم من النجاد؟» فعلمت
 انه أراد بالبحور بني سعد والدرا بني مالك بن حنظلة وبالنجاد امرأ القيس
 ابن زيد . قلت «بل من الدرا» قال «فانت رجل من بني مالك بن حنظلة» قلت
 «أجل» قال «فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب؟» فعلمت انه
 أراد بالسحاب طمية وبالشهاب نمشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم . فقلت
 له «من اللباب» قال «فانت من بني عبد الله بن دارم» قلت «أجل» قال «فمن
 البيوت أنت أم من الدوائر؟» فعلمت انه أراد بالبيوت ولد زرارة وبالدوائر

الاحلاف . قات « من البيوت » قال « فانت يزيد بن شيبان بن سلقمة ابن زدارة بن عدس وقد كان لا يلك امرأتان فأيهما أمك »

* *

ولقد غلط من ظنوا ان العرب لم يكن لهم من حضارة ولم يكونوا على شيء مما عليه الامم من الروابط كلابل كان لهم حضارات ولوكهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ . وملوك الحيرة (في العراق) مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم وان حمل تاريخ العرب أولهم مالك بن فهم بن غم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن خيطان وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف الفارسيين وملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعد عمرو ابن أخيه جذيمة الابرش بن مالك بن فهم وجذيمة هذا هو صاحب الحدث المشهور مع الزباء (زوييا) صاحبة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جذيمة قتل أباهما فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغترى وقدم اليها فقتلته وأخذت بثرايها . وبعد قتله انتقل الملك الى يد ابن اخته عمرو اللخمي جد الملوك المازدة اللخمين .

والملوك الفسائيون في الشام مشهورون أيضا لا يجهلهم من عرف تاريخ الرومان اذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن النوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم ، ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعة من سليح فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

(٣ خديجه)

وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وكان ابتداء ملكهم قبل الاسلام بأربع مئة سنة وقبل أكثر من ذلك، ولما ملك جفنة وقتل ملوك سليح دانت له قضاة ومن بالشام من الروم، وبني بالشام عدة مصانع ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة، وبني بالشام عدة ديور منها دير حالي ودير أيوب ودير هند، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبني صرح القرير في أطراف حوران مماليك البلقاء. ثم ملك الحارث بن ثعلبة، ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبني القباطر وأدرح والقسطل، ثم ملك بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبني بها الحفير ومصنعه، ثم ملك بعده المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة الأول، ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الإيهم بن الحارث وبني دير ضخم ودير النبوة. ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ثم ملك جفنة الأصغر بن المنذر الأكبر، وهو الذي أحرق الحيرة، وبذلك سموا ولده آل محرق ثم ملك بعده أخوه النعمان الأصغر بن المنذر الأكبر ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر، وبني قصر السويداء ولم يكن عمرو أبو النعمان المذكور ملكا وفي عمرو المذكور يقول النابغة الذبياني

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان، وهو الذي قابل المنذر اللخمي بن ماء السماء. ثم ملك بعده النعمان بن الإيهم بن الحارث بن ثعلبة، ثم ملك أخوه الحارث بن الإيهم، ثم ملك بعده ابنه النعمان بن الحارث، وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بمض

ملوك الحيرة اللخمين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوها حجر بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجر ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث ، ثم ملك ابنه الحارث ، ثم ملك بعده الایهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القيس بن خسرو بن له قصرًا بالبرية عظيمًا ومصانع . ثم ملك بعده أخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده أخوها شراحيل بن جبلة ثم ملك أخوهم عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الایهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي أسلم في خلافة عمر ثم عاد إلى الروم



ومن ملوك العرب ملوك كنده الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجر آكل المرار بن عمرو وخلف على الملك ابنه عمرو المقصور سمي بالمقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لأنه وافق كسرى قباذ بن فيروز على الزدقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباذ المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملكه الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغاب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وأربعمائة نفساً من ذوي قرياه فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث إلى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حمير أبو امرؤ

القيس الشاعر، وكان حجر قد ملكه أبوه على بني أسد بن خزيمه فبقي أمره متمسكا فيهم مدة، ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طاعته ثم هجموا عليه بغته وقتلوه غيلةً وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أياتاً منها
بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه خال

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد أبيه فاستنجد بيكر وتغلب على بني أسد فأجبدوه وهرب منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن السماء ففترقت جوع امرئ القيس خوفاً من المنذر، وخاف امرؤ القيس منه أيضاً فصار يدخل على قبائل العرب، وينتقل من أناس إلى أناس حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ثم سار إلى ملك الروم مستنجداً به وأودع أذراعه عند السموأل وكانت مئة وفي مسيره إلى ملك الروم قال قصيدة تشمر بلسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبابة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أن لا حقايق بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنمئذرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقبال، وقد وقعت أمام الامم والاجيال، سنين من الدهر، لا يعرف لها حصر، امرك ان القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجبولين، وانهم كانوا مدشتين، من غير ملك جامع، ولا شرع وازع، هو قول يرسله صاحبه من غير ان يكاف نفسه بحثاً وهو لما يحط بذلك خبراً

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد -
كانوا هم أحق بمعرفة انفسهم وحفظ مفاهيم وعصبياتهم . وما نقل الينا عنهم
من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شهادة ،
وأمثاله امام أعيننا مشاهدة ، وإذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار
لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق فان تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه
في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار وليست الكتب أحق بالصدق
من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقة

فمن شاء ان لا يثق بالمنقول البتة لا اضري رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول
ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا وانما يضره وحده . يقال
استفادته من المنقول ، ويكثر وساوسه وغروره ، ثم يصل الى درجة لا بشي
معها أحد بمقوله .

ومن شاء ان يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لانه شهد
لي على نفسه شهادة كافية ولا أزيد شأنا على ما أوضحت به ان العرب
تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم

* * *

من أجل هذا نؤمن بما نقل الينا من نسب سيدتنا التي نروي هنا
سيرتها وهي خديجة القرشية فان هذا النقل من النقول التي لا تجد النفس
حاجة للتردد في قبولها

وقد قلنا آنفا ان لهؤلاء العرب المعروفين أصليين معروفين عندهم
ومجهول ما وراءهما وهما عدنان وقحطان ، فاما قحطان فقد أخذت ذريته

يحظها من الملك لأن كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته وأما
عدنان فإن حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لهظمه متجاوز النسبة أي
انه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفيء
مجدهم وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نور ميين بهر العالمين أجمعين
فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لاتنا
نريد ان نتعرف القاري. يقوم خديجة الخصوصيين . ﴿فعدنان﴾ ولد له
﴿معد﴾ ومعد ولد له ﴿نزار﴾ وأولا نزار أربعة ﴿مضر﴾ وإياد
وربيعة وأنمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق .
ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالجوود وقس بن ساعدة
الايادي المشهور بالفصاحة . ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل غزاة وبكر
ووائل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت
لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب . ومن بني بكر
ابن وائل بنو شيبان ومن مشهورهم مرة وابنه جساس قال كليب وطرفة
ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهورهم سيلمة الكذاب
وولد لمضر بن نزار ﴿إلياس﴾ وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس
هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم
مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر ووصمة
وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو غمير وإهالة ومازن وغطفان وبنو عيس
الذين منهم عنزة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان
بين بني عيس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت ربعين عاما . ومن
بني ذبيان النابغة الذبياني الشاعر المشهور

وولد لالياس بن مضر ﴿ مدركة ﴾ وطابخة ومن ذرية طابخة
بنو تميم والرباب وبنو ضبة وبنو مزينة

وولد لمدركة بن الياس ﴿ خزيمه ﴾ وهذيل والى هذيل هذا انتسب
جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة ﴿ كنانة ﴾ وأسد والمهور وولد لكنانة
ابن خزيمه ﴿ النضر ﴾ وملكان وعبد مناة وعمر وعاصر ومالك فن
ملكان بنو ملكان ومن بني عبد مناة بنو غفار ومن مشهورهم أبو ذر ، وبنو
بكر. ومن بني بكر هؤلاء الدئل ومن مشهورهم أبو الاسود الدثلي وبنو
ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة ﴿ مالك ﴾ ولم يعرف له ولد سواه وولد للملك
هذا ﴿ فهر ﴾ وفهر هذا هو الذي سمي قريشاً ولم يولد للمالك غير فهر
وولد لفهر ﴿ عاب ﴾ وعارب والحارث فن عارب بنو عارب ومن
الحارث بنو احلج ومن مشهورهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري
فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر ﴿ لؤي ﴾ وآيم الادرم ومن تيم المذكور بنو
الادرم ومعنى الادرم ناقص الذقن

وولد للؤي بن غالب ﴿ كمب ﴾ وسعد وخزيمة والحارث وعامر
وأسامة . ومن ذرية عامر بن كمب عمرو بن ود فارس الرب الذي قتله
علي بن أبي طالب

وولد لكمب بن لؤي ﴿ مرة ﴾ وهصيص وعدي فمن هصيص

بنو جمح ومن مشهورهم أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف وكلاهما كانا
عدوين عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضاً بنو سهم ومن عدي بنو تدي
ومن مشهورهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرة بن كعب ❀ كلاب ❀ وتيم ويطة فن تيم بنو تيم ومن
مشهورهم أبو بكر الصديق وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهورهم
خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ❀ قصي ❀ وزهرة ومن ذرية زهرة سعد
ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا
عظيماً في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو
الذي أثل مجدهم

وولد لقصي بن كلاب ❀ عبد مناف ❀ وعبد الدار وعبد العزى
فن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة ومن مشهورهم النضر
ابن الحارث كان من أشداء أعداء النبي (ص)، ومن عبد العزى أيضاً سيدتنا
خديجة بنت خويلد التي زوي سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصي ❀ هاشم ❀ وعبد شمس والمطلب ونوفل
فن عبد شمس أمية ومنه بنو أمية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي
سفيان مؤسس الملك الأموي . ومن المطلب ابن عبد مناف المطلبيون ومن
ذريتهم الإمام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم ❀ عبد المطلب ❀ ولم يعلم له ولد سواه . وولد لعبد
المطلب ❀ عبد الله ❀ وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين

وولد لعبد الله بن عبد المطلب ❀ محمد ❀ النبي عليه الصلاة والسلام

الفصل الأول

(مكة وحالة قرى بش الاحيائية عند البعثة)

نشأت خديجة في بلد شأنه محجب ، قصي عن العمران ، في واد غير ذي زرع ، لاتناسب فيه الأمواه ، ولا تكتنفه الحدائق ، ولا تقوم للمصناعات فيه دولة ، ولا يمجد مستفي الزخارف لديه مجالا ، ولكن أبدله الله جلالا مغنويا ، وكساه جلالا روحانيا ، فالأفئدة تهوي اليه ، والمطايا تزجى له من كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد ، هي أم البلاد العربية وائمة في القطعة المسماة الحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها في سفوح جبال محبطة بها

لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكن ان نمحزر أهلها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل . وذلك أن قصي بن كلاب استطاع ان يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث ان صارت لهم خاصة

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره مجهولا عند المشتائين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرفوها ويحجون إليه ، ويتعارفون ويتماطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقى متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور أما من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان وإنما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بمجدوع النخل حالية من الخزرف

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هذا لم يزد على طول القرون الا تشريفاً ونكريماً ولم يتغير فيه الا أشكال الابنية وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وإنما بقي هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيداتها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمد من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جد النبي (ص) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لانه لم يكن بمكة من ماء الا في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج إليها . ولحق زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحاج فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابتاء السبيل لنعم شيئاً من روح تربية المهتم وترعة العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه « خديجة »

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الأمور العمومية فيما بينهم فكانهم كوتوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية القرية الوضع سائراً على منتهى النظام والمكن لم يكن هذا النظام لسراً في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في مدداتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالأخبار كلها دالة على ان القوم بالجملة كانوا كأنهم مفعولون على انتضاء النام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نمده له نظيراً ان كل فرد من أفراد تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واحتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة القطر غالبية ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه اذاهم نجد ان ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كانت فيه عيوب فاذا أزيلت يصبح اول مجتمع راق في الدنيا وخليقاً ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أثربت

بديع جماله ، وأشرأبت الى عظيم كماله ، ثم تآقت الى تعريف العالم بما أ كنت
تلك البقعة الي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول الميرة والارواح العالية
وقد وقع ذلك فن الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد
أتاح لهذا البلد الجمهوري من ينظفهم من تلك العيوب التي اشرنا اليها فكان
بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق
الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

اما الجمهورية التي أشرنا الى انها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على
على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك اهم رأوا الشرف انتهى الى
عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة ، ثم اجعوا امرهم
على ان يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت
العشرة وراضوا على ان يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص
بها تمد من مناخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم
الاشراف وبذلك أعطوا الامل التي يجذبها الفرد أو الاسرة حقها من
التكريم والتشريف ليزداد نشاطاً وأربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم
وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على
وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها ، وعظموا في أنفسهم حقها ، وبها
كأوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود ، ويفصلون ما يفصلون
في بعض القضايا والحقوق

وقد ألفوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لنوا إذا صدقوا
في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارانهم الحق وقليلة الجدوى ادا مرض

تضامنهم ووهي نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بمعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنهم كاهم يحملون بين أضالهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام مؤقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالحروب ففلاقتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يعدم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم فان نزل بهم ما يطيقونه كشفوا اللثم عن قوتهم وبرزوا من غير ترث وانزل بهم ما لا قبل لهم به ريثوا وعمدوا الى الأناة وفتقوا من الحيلة أبوا بايخرجون منها الى السعة من الضيق ومن قلّ الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً .

ومن أشهر حوادثهم الخارجية الي ضاقوا بها ذرعاً مجرم القائد الحبشي أبرهة الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقاتله عبد المطلب جد النبي (ص) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابله ولطف بمض الشيء من حديثه التي كان بها مسوقاً لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخر ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في أهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

نم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجبا من الأمر وذلك

انه لما اتاهم أرسل اليهم رجلاً حميراً كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حربه قال حناطة انه أوصاني بأنه يريد مواجعتك ان لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه واکرمه وأخذته الى جانبه وقال للترجمان سلّه أن يقول ما يبدو له فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسألة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك نبر هذا الأرب فردّ علينا أبلنا قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتي حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلتني أنكلمني في الاموال وترك بيتا هو دينك ودين آبائك فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه فقال له انه ما كان ليمتنع مني فأجابه أنت وذلك ورد أبرهة الابل على عبد المطلب وبقى مصراً على عزمه ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم ان يعتصموا بالجبال، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون وقد أتى من لدن العناية الفيينية ما لم يكن في الحساب فان أبرهة لما أصبح وتهاً لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرّض واتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يبق ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاهم أبرهة وتذكروا ما انذره به ذلك الرجل الجليل السني

الطلعة عبد المطلب من حماية هذا البيت بطريقة لا يلفها عقله فحمدت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم ورموا عقله بسهم نافذ من بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها . وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (س) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته . ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه الحادثة في القرآن المحيد

الفصل الثاني

(بيوتات قريش وخصائصها)

أما بيوت شرفهم المشرة فهي :

هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ونخزوم ، وعدي ، وجمع ، وسهم ،

واما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والمارة ، والمقاب ، والرفادة ، والحجابه ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبه ، والاعنة ، والسفارة ، والايثار ، والاموال المحجرة ، هذه الاسماء أكثرها اصطلاحية يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهورياً على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

وأما المارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفیه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهي راية قریش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان انفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

وأما الرفادة فمنها الاسعاف وكانوا يجمعون من اتقسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

وأما السدانة والحجابة فمنها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدينتهم وجمهوريتهم وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتقدمة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متمات مدينتهم، ولئن

يتولونها شأن يذكر عندهم . وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس يبعد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برأسة الوزراء أو رأسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يرضوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرمأ اودية وكان النهوض مع صاحب الغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه واما القبة فأشبهه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون اليها وقت الحرب فقط وامل ذلك لسداجة الحرب اذ ذلك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي ايضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فنّ التعبئة اليوم يخلو من الاستثناس بذكر تلك التداير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية) وأما السنارة فلمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شوب نارها وتماطم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

وأما الابسار فهي الازلام والقдах كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمراً وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماع من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمع الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها

وأما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابهاً . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة ، أما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كباراً سراً . عشائراً في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

واما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه وقيسون الامور باشبابها

وهنا يختر في بال القارئ أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا ثريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف . وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والدود عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجحدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطاب وبني أسد بن عبد العزي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

نعم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا يكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والامر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . واما الحوادث

الجناية فلا يجوز اهلها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في المصائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نم الظهير على قليل المدوان وقد كان القوم يتواصون باجتناّب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابناؤها:

أبني لا تظلم بمكة — لا الصغير ولا الكبير

واحفظ محارمها بني ولا يتركك الفرور

أبني من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور

أبني يضرب وجهه ويلح بخديه السмир

أبني قد جربتها فوجدت ظالمها يبور

الله آمنها وما بنيت برصتها قصور

والله آمن طيرها . والمصم تأمن في ثبير

وتواصهم بالنهي عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحمهم على مثل هذا

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا انهم طرّقوا كسائر الأمم باب الضلالة المنشودة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها والى أين متنها وماذا يزكيها وماذا يدسّيها نم طرّقوا هذا الباب ولكن لم يفتح لهم عن الطريق الموصل الى

هذه الحقائق المكنونة بل كانت نصيبهم كنصيب الاكثرين ظنوناً ورجماً بالغيب

أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافتدة ، وقالوا كما يقول سوام انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذا السبيل تأهوا فتركوا ههنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لاناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله

لقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخليهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الالهة القويم ولم يكن حائزاً ان يشركو به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم ،

غلطوا في كل هذا وتسفط فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً ومدبراً عظيماً هورب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قدر رق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحت على مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبني وما أشبه هذه المناقب وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الا قليلاً

فاذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بترغبات الوثنية لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي اضاءت لهم فمرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاصلة ولم يكن يعوزهم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي اقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمجيئ المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لتي اراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار الى جانبها اراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر

كلهم الا قليلاً كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم
فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال
جذوره ولا ندري السر في هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة
كيف أقامت لها شأناً رفيعاً في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في
جوار البيت المشرف وأحسنن المقام في هذا الجوار الشريف فقامت
بمقوق حجاجه من سقايتهم ورفادتهم ، وقامت بمقوق المستضعفين فيه
من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصى بالعدل
والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لا ثم
عظيم وشرف جسيم على انهم لبسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى
ناصرآ . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا
في صفاء العقول الغاية ، والأمة والشعوب نجماً بأفراد وتموت بأفراد
واذا سخر الإله سعيداً لانس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا عليها فانهم
لما خلصوا من تملك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التملك
فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت
مكاسبهم لا تقسم لا يشاركون فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة
والا تاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم يتحكمون يوم يشاءون الى
من يرضونه من كبارهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من
أحكامهم فرائضهم وانا يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي
يثار له العموم أو يثار له من أصلهم خاصة

وكان جائزاً لأحدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة في النشور والجزاء الاخروي وبعضهم انصرف عن عبادة الاوثان وبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراماً بل يبيعون ويشتررون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همه في التجارة والرحلة فيها الى الشام وغيرها في الصيف والشتاء أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصنائع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأف من إكراه امائه على البناء لياخذ ما يعطين في سبيله

أما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة بيدانه لم ينقل لانا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهلهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأينا انهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربههم الأعلى، الذي خلق فسوى،

الفصل الرابع

(مقام النساء في قوم خديجة)

لك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاماً مهيناً بل كان لها لديهم مقام كريم وجلّ ما عرف عنهم من انحطاط مقام المرأة أنهم كانوا يكرهون البنات وأنهم كانوا يدفنون أي يدفنونهن في التراب وهنّ على الحياة (٥٨:١٦) وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنثى ظلَّ وجهه مُسَوِّدًا وهو كَظِيمٌ ٥٩ يوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به، أَيُسَكِّهُ سَلَى هُوَ أُمٌ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٨) هذا ما عرف عنهم ومن أخذ هذا الأمر على ظاهره وإطلاقه يستخف بهؤلاء النعم لأن انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الأمر على ظاهره وإطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

إن كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار، وفيها الحمقى وأولو الألباب، وفيها القساء وأهل الرحمة. فليس من العقل ولا العدل أن يجعل عمل بعض الحمقى أو القساء أو الفقراء في بلد مثلاً ومراًة لأعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساء كما هو الحال في سائر البلاد وكان

(٦ خديجة)

أَسْأَلُ قَلِيلُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ يَأْتُونَ هَذَا الْعَمَلِ الْقَطِيعَ نَفْسِي الْوَادِّ
(دَفْنِ الْبَنَاتِ فِي الْحَيَاةِ فِي سِنِ الطُّفُولِيَّةِ) فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ بِدُونِ
تَقْيِيدِ إِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ نَشَأَتْ مِنْهُمْ سَيِّدَتُنَا هَذِهِ كَانُوا يَشْدُونَ الْبَنَاتِ . إِنْ
قَوْمًا نَبَتْ فِيهِمْ مِثْلُ هَذِهِ السَّيِّدَةِ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَكُونُوا قَتَلَةَ بَنَاتِ كَلَّا
أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَقْتُلُونَ الْأَجْسَادَ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ الْعُقُولَ
وَالْأَرَادَاتِ ، وَأَمَّا الَّذِي نَقَلَ عَنْهُمْ فَهُوَ عَمَلٌ تَقْرِيكَادُونَ لَا يَذْكُرُونَ
مِنْ قَرَائِهِمْ أَوْ حَقَائِقِهِمْ أَوْ قَسَائِهِمْ

وَلَمْ يَكُنْ الَّذِينَ يَشْدُونَ بَنَاتِهِمْ يَأْتُونَ هَذَا الْعَمَلِ الْقَطِيعَ تَفْطِئًا مِنْ
هَذِهِ النِّسَمَاتِ الْبَرِيئَةِ أَوْ احْتِقَارًا لِنَجْسِ الْمَرْأَةِ كَمَا يُلَوِّحُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ بَلْ
كَانَ يَسُوقُهُمْ إِلَى ذَلِكَ فَسَادٌ فِي الْخَيَالِ وَضَمَفٌ عَظِيمٌ فِي الطَّبِيعَةِ . وَإِنْ
الْخَيَالُ الْفَاسِدُ لِيَزِينِ الْمُنْكَرَ حَتَّى يَظُنَّهُ صَاحِبُهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ كَمَا يَشَاهِدُ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكَ كَثِيرًا

كَانَ مِنْهُمْ فَقَرَاءُ يَزِينُ لَهُمْ خَيَالَهُمُ الْفَاسِدَ إِنْ قَتَلْتَهُمْ إِذَا ظَلَّتْ فِي
مِيزَانِ الْحَيَاةِ رُبَّمَا نَالَهَا ضَمِيمٌ مِنْ فَقْرِهِمْ وَرُبَّمَا عَجَزُوا عَنْ أَنْ يَكْرُمْنَهُمْ بِنَفَقَةٍ
تَسَاوِيَهُمْ بِأَنْرَابِهِمْ ، مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُمْ أَوْ جَوَارِهِمْ ، فَيَرُونَ مَوَارِثَهُمْ فِي
الْتَرَابِ ، خَيْرًا لِمَنْ مِنْ بَقَائِهِمْ دُونَ الْإِتْرَابِ ،

لَا نَكُرُّ أَنْ لَلْحَقِّ أَنَّ هَذَا الْخَيَالَ نَاطِلٌ وَلَا سِيمَا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنْ
هَذَا الْخَيَالُ الْبَاطِلُ لَمْ يُوْحَ إِلَى صَاحِبِهِ أَنَّ الْفَتَاةَ شَجَرَةَ خَيْبَةٍ يَجِبُ اجْتِنَائُهَا
قَبْلَ النَّمُوِّ وَيَسْتَحْسِنُ حَرَمَانُ الْوُجُودِ مِنْ ثَمَرَاتِهَا وَإِنَّمَا زِينُ لَهُ سَوْءُ عَمَلِهِ
هَذَا مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى هِيَ كَرَامَةُ فَنَاتِهِ

يتخيل ذلك المسكين ان فتاته ان عاشت تمش مثله في غصص تذيب
 الفؤاد ولو قد من الجلود ، و كرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشهور
 السود ، فيزين له خياله ان يحمي كريمته فلذة كبده من مثل هذه الحياة التي
 بلاها فقلاها وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام
 سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم السكي
 آلام سقم مزم

وكان منهم حتى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما
 وقعت في يدم من لا يرعى له ولها حرمة . ولو قضي على كل الشر بمنزلة هذه
 الوسواس لا ذنت الدنيا بالانقضاء ولكن الموجد لم يشأ الا ان تكون
 الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوسواس سلطانا
 على قلوب البشر الا قليلا ممن بلفنا شيء عنهم من هذا القليل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحقى الذين كبر نصيبهم من التسوة مع
 نصيبهم من الفقر والحقى فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكرا في بيوت معينة
 واشخاص مختصة واما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة ، وان
 قيمة كل امرىء ما يحسنه ، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند
 قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه ، لما سهل عليه ان يقصف
 يديه غصنا منه أنبتته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحق ان الفرار من توم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان
 ويشمر أقصى درجات الخسران لرأي انه جدير بالبكاء على حظه من
 ضعف النفس

وهيات ان يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام . وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها ؟ واتى يمد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الحرب، من غير ما طلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة . وليس معناه ان البنات تظل طول دهرها مكرهة وان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم . ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحمقاهم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما إجرأهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى أبائهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقريشا خاصة كانوا يمزّون المرأة ولا يهينونها وقد أعطوا النساء كل ما هن من الحقوق في نظر العدل ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه إدراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفسا كنفس ذلك الانسان المذكر تنضب وترضى وتتم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هند أبنت عتبة وهي من قوم سيدتنا « خديجة » جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابك، وان ملت عنه حط اليك، تحكين عليه في أهله وماله، واما الآخر فوسع عليه،

منظور اليه ، في الحسب الحبيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعز
عشيرته ، شديد الزيرة ، لا ينام على ضمة ، ولا يرفع عصاه عن أهله « (*)
فقات يا أبت الاول سيد مضياح للحره فماعت ان تلين بمد ابائها ،
وتضع تحت جناحه اذا تابعا بعلمها فأثيرت ، وخافها أهلها وأمنت ، فساء
عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمت ، وان
أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بمد .
وأما الآخر فبعل الفتاة الخريده ، الحره العفيفه ، واني لاخلق مثل هذا
لموافقه ، فزوجنيه ، فزوجها الثاني وكان هو أباسفيان بن حرب فولدت
منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودواهيهم
فهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها
عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجى والزكاة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والامور
العمومية . وناهيك أن الحرب الي ظلت مستمرة نحواً من اربعه بن سنة
بين بني ذبيان وبني عبس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأه ولم تتمكن
من اطمائها الا بمالها من المكاة وحسن الرأي وذلك ان بيهسه بنت أوس
ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابوها من الحارث بن عوف المري
وأراد ان يدخل عليها قات انتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً تعني بني
عبس وبني ذبيان فقال لها ماذا تقوين قات « اخرج الى هؤلاء القوم
وأصالح بينهم ثم ارجع الي » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن
ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصالح ودفعا الديات من أموالهم

وحسبك من اشتهر من العربيات في السياسة منهنّ اللاتي كن من شيعة
الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمار بن الاشر الهمدانية،
وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وامستان
بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية
الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقبة البارقي . وأروى بنت
الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعمد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين . قل لها انت القاتلة لاخلبك :

شمر كفعل أليك يا ابن عمارة
وانصر علياً والحسين ورهطه
ان الامام أخا النبي محمد (*)
فقد الجيوش وسر أمام لوائه
قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار
ما قد نسي » فقال « هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت « صدقت
والله يا امير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام ، ذليل المسكان ، وليكن
كما قالت الخساء :

وان صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وبالله أسألك يا امير المؤمنين اعفاني مما استغفيتك قال : قد فعلت
فتولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولا مورهم

مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال نقدم علينا من ينهض بعزك، ويسيطر بسطوانك، فيحصدا حصاد السنبيل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيصة. ويسألنا الجائلة، هذا ابن اوطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فلما عزلته فشكرناك، واما لا فمر فناك « فقال معاوية « ايي هم مدين بقومك والله لقد هممت ان اردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه المدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا فصار بالحق والايان مقرونا

قال : ومن ذلك : قالت : علي بن ابي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيت يوم ما في رجل ولا صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الفث والسمين فوجده قائماً فانقتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكي ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بإظلم خلقك، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَيَّةُ اللَّهِ خَيْرُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتي يأتي من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والمدل عليها فقالت « ألى خاصة ام لقومي عامة » فقال « ما

انت وغيرك » قالت « هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلاً شاملاً
والأيسعني مايسع قومي » قال اكتبوا لها بحاجتها

ووفدت بكارة الهلالية ايضاً على معاوية بمدموت علي فدخلت عليه
وكان يحضر له عمرو بن العاصي وصروان وسعيد بن العاصي فجلسوا يذكرونه
بأقوالها التي قالتها في مشايمة علي ومعاودة معاوية فقالت « أنا والله قاتلة
ما قالوا وما خفي عنك مني أكثر ، فضحك وقال ليس بمننا ذلك من برك
وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن
قيس الحمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان
يوسع لها في النفقة لما وفدت على معاوية قال « مرحباً قدمت خير مقدم
قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ثم قال لها « ألسنت
الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين
الحرب فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين « مات الرأس وبتر الذنب ،
ولا يمود ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تسكر أنصر ، والامر يحدث
بمده الامر » قال لها تحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت « لا والله لا احفظه » قال
لكني احفظه ونلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها
والله يازرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه » قالت ، « احسن الله شارتك
وأدام سلامتك ، فثلك يشر بخير ويسر جليسه » قال « أو يسرك ذلك ؟ »
قالت « نعم والله » فقال « والله لو فاؤكم له بعد موته ، أعجب من حيكم له في
حياته ، اذكري حاجتك » فقالت يا أمير المؤمنين آليت على نفسي ان لا
أسأل أميراً أعنت عليه أبداً . ومثلك من أعلى من ذير مسألة . وجاد عن
غير طلبه ، قال صدقت وامر لها وللذين جاؤا معها بجوائز .

ووفدت عليه ايضاً ام سنان بنت جشمة، وعكرشة بنت الاطرش، ولما حج سأل عن دارمة الحجونية فجيء بها اليه فقال لها « بشت اليك لا سألك علام أحببت علياً وابغضتي ، وواليتي وعاديتني ؟ » فاستعفته فلم يفعل فقالت له « أحببت علياً على عدائه في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبتك ما ليس لك بالحق ، وواليت علياً على حبه المساكين ، وإعظامه لاهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى » ثم قال لها : يا هذه هل رأيت حياً ؟ قالت « أي والله » قال فكيف رأيته ؟ قالت « رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك » قال فهل سمعت كلامه قالت « نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صداً الطست » قال صدقت فهل لك من حاجة قالت « نعم تعطيني مثقاله حمراء » قال ماذا تصنعين بهما قالت « أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر » قال « فإن أعطيتك ذلك فهل أحلّ عندك محل علي بن ابي طالب ؟ قالت « سبحان الله أو دونه » فقال « اما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً » قالت « لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين » وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت

عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم فهكذا كان مقام المرأة الدرية، من أخوات سيدتنا القرشية. وهكذا كان حظهن من النصاحة والحصافة، وبلغن من المشاركة في الامور العمومية والاختذ بالاسباب، والمشايمة لبعض الاحزاب، وما أتيا الا باليسير توطئة لمرفة مقام السيدة خديجة في قومها (٧ خديجة)

الفصل الخامس

« مقام خديجة » عند قومها

ما اكرم هذا المقام اواني بل بغير لا تأخذه الهيبة اذا دعي لتصور هذه المنزلة ؟
 سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجأيان ، والجمال والكمال يتألقان ،
 ومزايا كالزهر تفحاً وطيباً وكزهر السما بهاءً ونورا
 من شرف حسب ، الى كرم محدد ، الى سؤدد قبيل ، الى عز عشيرة ،
 الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجى ، الى طهارة نفس ، ذلك
 ما كانت تزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحمل به بين قومها في
 المكانة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، ولا نبأها بغير من الانباء ،
 بل هي موهوبة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهن نصيب
 بغير الخول ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسم في
 أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها . ذلك الشيء
 هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعاتهم . وليس
 بكاف لتعالى امرى ان يكون كاملاً بل بدمع ذلك من احاطة قومه
 علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ومن المشهور ان الحجاره

الكرامة عند من لا يعرف مزية لا قيمة لها وهي عند عارفها فوق القيم فالحق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسماة جده وحده بل هو دليل ايضاً على فضل اولئك القوم وسماة جدم ، فقد ربح قوم كان للافضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يملو بينهم الا من استعان بجيش من الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع ،

واذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة » لوفرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجاباً . وليست «خديجة» وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم وكان الكثير منهن آتار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلا مما كانوا فيه ولم يستطعن ذلك الا بالهن من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي مدود، وعقل مذكور ، وتقى مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب ابا العدل و ابا الفتوح و ابا السياسة والادارة لم يكن اسلامه الا بمحاورة سيدة من اولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سميد بن زيد بن عمرو بن نفيل نحن نعلم ان أكثر الناس يعمرون بالمزية يعمدون أمثالها فلا يفتنون اليها ما لم تكن رائحةً وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا صار لان فيما يعمدوناه ايضاً ما يستحق الالتفات اليه ، وبغري بالارتفاع منه ان كان مفيداً ، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق المادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائم المشود ، والسامي الذي هو فوق المهود

ولا يشكن القارىء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الالة
عن اجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الامعان فوق ما تتصوره . وفي
كثير مما لا نتفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاهر فوائده
وباهر أسرارها . فلذلك أحيانا ان نمر بقارئنا مرة في تفصيل جملة تلك
المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لانهربا
اختليج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معبوده في كثيرين وقد
يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا
يطربون بغير الغرائب

نعم ، نعم نحن لم نطرف بما فوق المهود ، ولم نُهدر ما وراء المشهود ،
ولا عذنا بمبتدعات التصور ، ولا لثنا بغرائب الحوادث ، وشواذ المصادفة
وخوارق العادة ، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال ، ومألوف
لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الامر عندنا في هذه المهودات
على ما قلنا . واذا ثبتنا اليها بنظر الإيعاز غير وسنانه عين بصيرتنا الفينا فيها
عند سأم النفس من لذة الحس ، أعظم ما تنوق اليه من لذة التصور
وفائدة الإدراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه
الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ولم
يكن حسناً بنا ان ننسى أحسن ما تلده لنا هذه الامة من الصور التي لا تحصى
اننا بتذكرنا من سادوا وشادوا ، وبتذكرنا من صالحوا وأصاحوا ،

وبتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا - نذكر تاريخ امنا الحياة وترناح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها ، وتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولابسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أوكارنا ان تحيط بكنهه جواهره خبراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل يبلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل « خديجة » والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أبدع لنا في «خديجة» المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الأعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالنبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعما في «خديجة» ، فرأينا في سيرتها ذلك المثال السني،
والكمال السمي

عرفنا حسن استعدادها، لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر
النفس اذا كان غير صالح لفعلها، كما لا يصلح الماء، لان تطعم فيه مائشاً،
وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب
في المجتمع

ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر
جديراً بالتنبؤ وقلماً رأينا من نوره او التفت اليه فلذلك عنيانا به نحن
كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم «خديجة» ارتقاء عظيماً فان
التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً
اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتاً عنه . وتشتهر
المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها
اسم المنكر ، ويضطر الناس الى تقرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف
ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبغ في المسكوت عنه من الاشياء حتى
يرى كل منهم رأيه فيها، فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجب على نفسه ، وذلك
يستتبع شيئاً حتى يجرمه عليها . وأعتل الناس في هذه الاشياء المسكوت
عنها من جعل المعروف والمنكر مقياراً لكل ما قرب من المعروف كان
حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف ، وكل ما قرب
من المنكر كان مستزلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر .
والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان، وعليه قيس الاصل في المعروف
قياس الخلد فالاصل فيه المدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها

وأي باحث لا تأخذه هيبة اذا اطالع على ما كان يقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم اثنازين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين في تلك الفيافي، يدهش المطالع ما يراه لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك. فتراهم مثلاً لما كانت الساحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يأثروا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بلغوا بهتهم في الجود الكواكب وازينت الارض بمنابهمهم، واشار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي أثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان تجدهم جعلوها شعاراً المحامد وتاج المناقب وسيروا فيما ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ماقى» وكانوا يتماحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير - وهو ابن أخي خديجة - قتل أخيه مصعب خطب فقال «ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، اننا لنعوت حتفاً ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً، تحت ظلال السيوف» وان يقتل المصعب فإن في آل الزبير خلفاً منه، ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة ومثل هذا يقول علي ابن أبي طالب «بقية السيف أنمي عدداً، وأطيب ولداً» وتقول الخنساء وهي إحدى الشهيرات في العرب:

نهين النفوس وبذل النفوس من يوم الكريهة أبقى لها
لا يستنكرن أحد اذا قيل له ان الشجاعة- وهي السجية التي لا ترق
الام اذا خلعت منها- كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يمتدّون
بأحد منهم ما لم تكن فيه وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لان
أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجمان واقدامهم في الشدائد
حتى فضلوا، والجنباء واحجامهم فيها حتى رذلوا، وهنالك من الشر في
الشجاعة والشجمان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف
على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في
سبيله كقول عنزة وهو أحد مشهورى شجمانهم:

بَكَرَتْ تَخَوُّفِي الْخَوْفُ كَأَنِّي أصبحت عن غرض الخوف بمزمل
فَأَجَبْتُهَا إِنْ أَلْتَمَسَتْ مِنْهُ لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فَأَقْنِي حَيَاءَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل
وقد يظن ظاراً أن شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا
الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد ان نأتي بآية على
شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد إسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا
ان ندل القارئ على ما كان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى
أن يوقع سوءاً بيني بگربن وائل لسبب لا محل لتفصيله فجهز عليهم
جيشاً كثيراً ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهز وائل واعانهم قبائل أخرى
فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم
العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار،
وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار، وحمى الذمار، واتقاء العار،

وفي هذه الواقعة يقول الاعشى اعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الخو صبحهم	منا غطاريف ترحو الموت وانصرفوا
لقوا مللملة شهباء يقدمها	للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة	موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاءهم	مثل الاسنة لا ميل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جاجنا	ليعلموا انا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والمهندي يحصدهم	ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو ان كل ممدّ كان شاركننا	في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى الشباب أيديهم	منا بديض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت	حتى تولت وكاد اليوم ينتصف
بطارق وبني ملك مرازمة	من الاعاجم في آذانها الشنف
من كل مرجانة في البحر أحرزها	تيارها ووقاها طينها الصدف
كنّا الآل في حافات جمعهم	والبيض برق بدا في عارض يكف
ما في الخدود صدود عن سيوفهم	ولا عن الطعن في اللبّات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن الفرّج المحلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة	الا اصطليتنا وكنا موقدي النار
وما يمدون من يوم سمعت به	للناس أفضل من يوم بذّي قار
جشا باسلاهم والخيّل عابسة	لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيه يقول شاعر آخر من بني عجل

ان كنت سافية يوماً ذوي كرم فاسقي الفوارس من ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم واعلي مفارقهم مسكاوريجاما
وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكل مظهر وكان
المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي اذ كتب الى بني شيان
يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم
وفيه يقول :

قوموا جميعاً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركمو ربح الذراع بأمر الحرب مضطلما
لا مترفان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشما
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمر على شذر مريرته مستحکم الرأي لافحما ولا ضرا (*)
وليس يشغله مال يشعره عنكم ولا ولد ينبغي له الرفما
فعلى مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من
الشجاعة التي لا قوام الا بم بدونها وكانوا لا يمتدون بالجبان ولا يمدونه
شيئا مذكورا . يندك بذلك قول احد شعرائهم

خرجنا نريد مغارا لنا وفينا زياد ابو صمصمة

فسته رهط به خمسة وخمسة رهط به أربعة

ثم لم يكن نصيب قوم « خديجة » في فقه النفس والحكمة والمعارف
بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها
من غير كتب وكان لهم الامام قليل بحركات الكواكب والانواء التي

(٥) المريرة طاقة الجبل والحبل الشديد القتل . والشذر القتل عن اليسار

وللننى استحكم امره وقويت شكيته . وانعم الرجل المرم والضرع الضيف

تبعها . وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان او طب الحيوان . والطب يقتضي ايضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها الباري في المعدن والنبات والحيوان . اما معرفتهم بالاخبار اي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بـعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق ان تسمى علماً وانما كانت السابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتها هذه المعرفة باسم علم الانساب أن عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفرع القبائل وإلحاق الفروع بأصولها على شدة البعدين الاصول وتلك الفروع أحياناً . وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتحلون حولهم . قال رؤبه بن المجاج قال لي النسابة البكري « يارؤبة لملك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبه فقلت له : اني أرحو ان لا اكون كذلك . قال فما آفة العلم ونكرته وهجته ؟ قلت : تخبرني : قال « آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلام الجوامع فيها مبلغاً عظيماً ويمكنني ان أقول انها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وها . محمد الباحث مخفر . المعاني التي تخطط للنفس فيها الاستحسان

أو الاستهجان إلا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وإبرازه بأبداع حلة ولا يفتك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الأمثال، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الأقوال، ولا نستطيع أن نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالنار عن سياق السيرة ولكننا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب، وصياغتها بأبداع البيان، ومقدار ما وسمت منها تلك الأفكار. ذكروا أن عمرو بن الظرب العدواني وحمزة بن رافع الدوسي اجتماعاً عند ملك من ملوك حمير فقال: تسألا حتى اسمع ما تقولان. فقال عمرو لحمزة أين تحب أن تكون أياديك؟ قال «عند ذي الرتبة العديم، وعند ذي الخلة الكريم، والمعسر العديم، والمستضعف الحليم» قال: من أحق الناس بالمت؟ قال «الفقر المختال» والضعيف الصوّال، والغني القوّال «قال فن أحق الناس بالمنع؟ قال «الحريص الكاند، والمستعبد^(١) الحاسد، والمخلف الواجد» قال من أجدر الناس بالصنيعة؟ قال من إذا أُعطي شكر، وإذا منع عذر، وإذا مُطل صبر، وإذا قدم العهد ذكر» قال من أكرم الناس عشرة؟ قال «من إذا قرب منع، وإذا ظلم صفح، وإن ضيق سمح» قال من ألام الناس؟ قال من إذا سأل خضع، وإذا سئل منع، وإذا ملك كنع^(٢)، ظاهره جشم، وباطنه طبع» قال فن أجل الناس؟ قال «من عفا إذا قدر، وأجل إذا اتصر، ولم تطفه غرة الظفر» قال فن أحزم الناس؟ قال «من أخذ رقاب الأسود بيديه، وجبل

(١) المستبد هو المستعطي (٢) معنى كنع هنا امكنش (٣) الطبع ففتحيتن

العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه « قال فن أخرق الناس ؟ قال من ركب الخطار ، واعتسف العثار ، وأسرع في البدار قبل الاقتدار ^(١) » قال من أجود الناس ؟ قال « من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود » قال فن أبلغ الناس ؟ قال « من حلّى المنيّ العزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزير » قال من أنعم الناس عيشاً ؟ قال « من تحلى بالعفاف ، ورضي بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف ، الى ما لا يخاف » قال فن أشقى الناس ؟ قال « من حسد على النعم ، وسخط على القسم ، واستشعر الندم ، على ما انختم » قال من أغنى الناس ؟ « قال من استشعر اليأس ، وأظهر التجميل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يسخط على القسم » قال فن أحكم الناس « قال من صمت فادّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدرج » قال من أجهل الناس ؟ « قال من رأى الخرق مغنياً ، والتجاوز مغرماً »

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على انه كان من جملة ما ينعنون به من التربية تثقيف ناشتهم بما عندهم من المعارف على الطريقة التي ألفوها وتمودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والنفائيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عليها الاخرون . ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ولا يكلف البليد في شيء ان يكدر في تفهمه مدرسته ، أو يذني في حفظه ذاكرته ، أو في توسيعه مخيلته

ثم قد كان مما عني به المقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد اسلفنا شيئاً عن ولهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المضموم

وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الاعفاء والمفاخر، واجلال الطهارة وأهلها وكان من أكرم الناس وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة « خديجة » هذا اللقب الشريف باستحقاق اذا كان يقال لها « الطاهرة »

فاذا عرف المطالع الكريم ان هؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نفي السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتمف كان جديراً به ان لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني المنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد بل يصل ذلك الفضل بإرسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجمعوا أ كبرهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والنراش . فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخلفاء بهم واستوفت وان بنحس الوزن لهم ، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم « خديجة » الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أ كبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اوتى الذين وافاهم الوحي ينعتهم بامام أهلهم قائلاً « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ »

الفصل السابع

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع ، ومحبوب لفائدته عند العقل ، ومع كثرة ما ألقت العيون رؤيته ، والآذان سماع أحاديثه ، لا تزال أسرارہ موضوع التفكير ، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب ، كيب لا وهو السر الأعظم في جذب الانسان الى مقاماته العلى من الابداع ، والسبب الاكبر في ابعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقى الوجدان والادراك ، فشرفه يجمع عليه عند بني آدم بنير خلاف بينهم . واما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم . ولذلك لم نجد بداً عن ذكر هذه المزية الاخرى لقوم «خديجة» فانها مزية جدرة بالذكر لا سيما بعد ان اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم انهم كانوا الاحضأ لهم من الجمال ، ولا ذوق لهم في الحسن ، ولا نصيب من توجه النفس الى الاحسن .

كبرت سبة أن يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتألف في ذهنهم ان يكون القوم سكان اقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكبر منا نقصيراً أن لا نبين في هذا الباب ما هو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فان استغرب قوم لم يميروا اسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فانهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على انه سيجد فيه المتفكرون صاحبهم الانيس ، ويجد هو فيهم أهله الكرام

ان العرب قد تناسبت أجزاءهم، وتناسقت أوضاعهم، واعتدلت أشكالهم، بياضهم جميل، ليس فيه بهق بعض الاجيال، وأدمتهم لطيفة، ليس فيه حاكمة بعض الاقوام، ولعل من فازت من حسانهم بخط عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين، وتكون آية المتهى في جمال العالمين،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله السكك من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياساً واحداً تنفق معه المقاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديوم وانما هو باعتدال القامة، واستواء الهامة، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه، وحلاوة الميسم، وملاحة العينين، ولطف الحاجبين، ورقة الشفتين، ولعل هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهورهم ومشهوراتهم. واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديوم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلاً في الجمال، قد يبلغ به متهى الكمال، ولم يكن هذا اللون قليلاً في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يذكروا في كلامهم من شيء بمقدار ما ذكرنا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيراً: البياض المشرب بحمرة او البياض المخارب الى صفرة وقال ذو الرمة احد شعرائهم:

بيضاء صفراء قد تنازعا لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة بالؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أن هذا اللون هو الذي تكون صاحبه أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الاوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حرته ألطف من الحمرة الملزمة لبعض البيض وعن مثل هذا تبرّ عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرة خلط صفرة في بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثرة البياض الطيف في العرب شبهوه بالصبح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا لا يبيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا لا يبيض المشرب بحمرة أزهر . وتشبيهم بورد الحدود دليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة لا تنطبع الا على أديم أبيض ورأيناهم يشبهون الاعتاق كثيرا بأباريق الفضة كما قالت قريية بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بمجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجوه الى مشارق أنواره ، ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ، ونقاهم من حال الى حال ، الى أن تهبأوا القبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أعلى ، ومن هذا الغرام الى ماهو أولى ، نقلهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، ودرقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شغفهم الجمال المحسوس ، ان يفهموا الجمال المعقول ، وان يزدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ولم يمزّ عليهم ان ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دعوا اليه لانه تبدى لهم أجل مما كانوا عليه

ونحن اذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشغف بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك المهّد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم نلّتهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش ، والتنقل في المعتدل من الاقاليم ، وحسب اليهم المعتدل من المهن والاعمال ، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالباً وللاختاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وان بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بجمالها سماعاً تجده لا يقصر في البحث والتدقيق بواسطة من يشق بحسن ذوقه ، وجودة امعانه ، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرئ القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن علفم (الذي يقال فيه لآخر بوادي عوف لافراط عزه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتنظر اليها وتمتحن ما بلّغه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ماوراءك يا عصام » قالت : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينا شعر حالك ، ان أرسلته خلته السلاسل ، وان مشطته خلته غنا قيد كرم جلاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحم ، قد تقوسا على مثل عين المبهرة ، التي لم
 يرعجها تاذن ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كدائيف المصقول ، لم يخنس
 به قصر ولم يعض به طول ، حفت به وجتان كالأرجوان ، في بياض محض
 كالجلان ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيد المبتسم ، فيه ثايات غرر ، ذوات أشر ، يتقلب
 فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي
 بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كالبريق
 الفضة ، ركب في صدرها تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان
 شحمًا ، وذراعا نليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفان
 رقيق قصبهما ، تعقدان شئت منهما الانامل ، تنأ في ذلك الصدر نديان
 كالرمانتين يحرقان عليها ثيابها - إلى أن قالت حين انتهت إلى وصف ساقها -
 وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدما ، كعذو
 اللسان ، - فبارك الله مع صفرهما ، كيف يطبقان حمل ما فوقهما ، «
 ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة
 ويزين فودها اذا حسرت صافي الغدائر فاحم جمع
 فالوجه مثل الصبح مبيض والفرع مثل الليل مسود
 وجبينها صلت وحاجبها شخت المخطط أزج ممتد
 وكانها وسنى اذا نظرت أو مدنف لما يفتق بعد
 فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لهط خديجة حظ منه
 كبير ولم يكن حظها هي منه قليلاً

الفصل الثامن

تراؤها والزاء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما آتاه الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء ايضاً و تراؤها في حياة أبها وكانت تاجرة واملّ اباهاً نحلها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئاً يوجب منه في قومها قاتهم كادوا يكونون كلهم تجّاراً . تقضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد، وشرية تربيتهم على طلاب المجد واتساع السؤود، و منافسة الاقرب والأبعد، ولولا شفقتهم بهم لما سمعنا بصدى همّهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . ولولا لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئى عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « يخ عيشنا عيش تعلل جاذبه، ^(١) وطامامنا أطب طعام واهنؤه وأمرؤه، القت ^(٢) والهبيد ^(٣) والصليب ^(٤) والعابز ^(٥) والذآنين ^(٦) والمراجين ^(٧) والضباب ^(٨) واليرابيع ^(٩) والقنفاذ ^(١٠) وربما أكلنا والله القذ ^(١١) واشتوينا الجلد،

(١) تملل من الملل وهو الشرب بعد الشرب « ٢ » القت التفصصة وهي الرطبة من علف الدواب « ٣ » الهبيد الحنظل يكسر ويستخرج حبه وينقع لذهب مرارته ويتخذ منه طبخ يؤكل عند الضرورة « ٤ » الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد أخذ اللحم منها « ٥ » العلهز قراد كبير ونبات ينبت في بلاد بني سليم وطعام يتخذ في المجاعة من لوبر والدم (٦) الدآنين جمع ذؤون بنت طويل ضيف له رأس مدور (٧) المراجين جمع عمر حور العود من الخش (٨ - ٩ - ١٠) الضباب، اليرابيع والقنفاذ حيوانات معروفة « ١١ » القذ جند السمكة

فما نلّم أحداً أخصب مناعيشاً، ولا أرخى بالاً، ولا أعرحالا، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إِذَا مَا أَصْبَنَا كُلَّ يَوْمٍ مَدِّيْقَةً ^(١) وخمس تمرات صفار كوانز
فجن ملوك الناس خصباً ونعمة ونحن أسود الناس عند المزاخر
وكم متمن عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز
فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة، ورزق من السعة، وإياه نسأل تمام النعمة «

هذا ما استطابه الاعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد . وما الاعراب الا بشر قد يستطيع غيرهم من البشر ما يستطيعون اذا خلصوا الى مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطلبون في الحقيقة ما يقيم مادة البدن فقط كما تطلبه سائر الحيوانات بل يتسابقون الى ما به النبطة من التفتيات والدخائر، ويتبارون في ما به التمايز من المستحسنات والبدائع، وبمثل هؤلاء يزيد الله الانسان بسطة من المعارف، وقوة في المدارك

وقربى كما عرف القارىء كانوا ممن أعدّم الله لعمل عظيم في الارض ولا يتم ذلك بحسب سنته سبحانه . ألم يكن في سابق تربيتهم وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأثفونه وما أمامهم الا المفاخرة في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لا ثقاً بمن هم عتيدون لمثل ذلك ان يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم، ولا تميل نفوسهم الى خيرات السماء والارض الفائضة في ملك الله الواسع، بل اللاتق

«١» المدبة تصغير . مذقة وهي شربة من اللب المزوج بماء كثير

بهؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق بحاله بقول ذاك الشاعر من أبناء ملوك العرب (امرء القيس)

فلو أن ما أسمى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسمى للمجد مؤثلاً وقد يدرك المجد المؤثلاً أمثالي
وحقا كانت حال القرشيين ناطقة بمثل هذا الكلام ، وكل منهم له
في المجد أرب ، فلا بدع اذا انصرفت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم
أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفعوا بانني قومهم
عند الشدائد منهم عبدالله بن جدعان الشهير بمجففته التي كان يقدمها للفقراء
والمساكين من زوار مكة وأهله ، وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها
وسأح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل
أحد اخوة السيدة « خديجة » العوام ابو الزبير ^(١) ومنهم أمية بن خلف
ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قال فيه « ان صفوان
بن أمية قطر في الجاهلية وقطر أبوه » أي بلغ ماله القناطير ^(٢) وكثيرون
غير هؤلاء

فيالله ما أشبه قریشا الضارين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل
المتاع من هذه البرية وإليها على سراكبهم سفن البر ، بالقينيين الضارين

« ١ » تحاربت في هذه الحرب قریش وهوازن وكان عمر الي (ص) فيها اربعة
عشر عاماً وحضرها مع اعمامه بني لهم التيل . وعبدالله بن جدعان سري شهر ومتر
كبير وهو من شذ بني حمح

« ٢ » أمية بن شذ بني حمح أيضاً وقد نزل في وقعة بدر وكان مع أعداء النبي
« ٣ » اما ابنه صفوان فسلم بدي فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها انتقل البضائع من هذا الثغر الى ذلك على
مراكبهم فلائص البحر . فلتئ كان لا بناء تلك السواحل رحلما شتاء
وصيف بين رثير الامواج ، ومعاركة الامواد ، فلا بناء هذه البراري أيضا
رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الزوال

لعمر الحق قد أدرك القوم ان الخير كل الخير لا تقسمه ولا يبرئهم
انما هو في أن يحفوا للتجارة لانها في الانم أقوى الاسباب المقربة من
البدائم ، المبعدة عن الحياة الوحشية ، فقاموا بهذا المربوب . ير كسالى
فكان لذلك ربحهم عظيماً من المال ومن . مكة الاختلاط بالاقوام في
ذلك العصر السحيق والمكان البعيد . وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران
المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت
تججه العرب الى البيت المعظم الذي فيها وجددير ببلدة يحج اليها العرب
ذلك الحج ان تكون للامن داراً ، وانما تسبق شجرة التجارة في رياض الامن .
وكاوا يقيمون من حولها أسواقاً . موقته في العام قبيل أيام الحج
ويفدون اليها ليديموا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول
يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه
« ذو المجاز » وهو عند عرفات و « بكة » وهي موضع باسفل مكة
و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشأن ان النعمان بن المنذر ملك
الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعدة عن مكة كان يبعث كل عام الى
سوق عكاظ جمالاً محملة بزاً وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشري له

بشئها من آدم الطائف^(١) ما يحتاج اليه ولم يكن يرسلها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب وهذا يدلنا على ان تلك البلاد لم تكن تأتي بالحصالات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج الى غيرها حاصلاتها أيضاً ومع ان الشام مشهورة بأغنامها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون اليها من زيب الطائف ذلك الزيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى يادره فقال : لله در قيس في أي عش أودع فراخه : يريد بقيس ثقيفاً فكذلك كان اسمه وحسبك ان النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغي الاحمال الى الشام والى غيرها أحياناً بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازيه مما تخرج تلك الارض من نبات ومعدن ويرجعون ببضاعة شامية او غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة « أم القرى »

ولا يستريح القارئ حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار الى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح ان يخرج منها وله العذر في ذلك اما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسمنا اكثر منه لئلا ينقطع الحديث فنقول ان تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد. ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصالح بعضها للصبغ وبعضها للدبغ وبعضها للطب وبعضها

للطيوب وبعضها للتنظيف فاذا أضفت الى ذلك ما كانوا يحففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يحففون من التمر والزبيب وغيرهما تجذبضاعه غير يسيرة يحمل مثلها الى أطراف بلاد الشام مما هو الى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً الا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجند له حافظون، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القارىء ان مجتمع «خديجة» قام بغير مسطر وجند له فعسى ان لا يقبس على استغنائهم عن سيطرة الامير استغناءه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلاً فان هذه الثلاث لا قوام لقوم بدونها . ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدو مفاخر لهم الا من جهة انهم تقلدوا بداركم وهم مهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في إدراك الشاؤم والابتعاد عن البداوة من بعد ان أوشك جوار البادية ان يجذبهم اليها كما جذب إخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن المغامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق . وترام مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأتون منه ويترفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لان العرب كانت تأفف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا اليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً

منها البتة فهناك اودية يجود فيها الزرع والفراش وتجري فيها العيون . وما الطائف عنهم بعيد وهو أبو الزراعة

اما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ما كانوا يأتقون منها . ففهم من كان يبيع اللباس ، ومنهم من كان يبيع الادهان ، ومنهم من يبيع اللحم ، ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح ، ومنهم من يبيع الرقيق خاصة . وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الإنسان المتحضر من صنوف الاكسية المعادة ، وضروب الاطعمة والاشربة المعهودة ، وصنوف الماعون والاداة اللازمة ، والعناقر المروقة ، والحيوانات المتداولة ، والاسلحة الشائمة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال ان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال انه كان سمساراً كما ان أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبثاً بالزخرف وأبعد عن التسابق الى المتاع الزائد عن الحاجة نرى ان حاجاته التي تحتاج الى عمل التجار لم تكن قليلة ونرى أنها وحدها كافية لان يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً من المال فالتجارة ولا شك هي السبب الاول في ثراء قريش وكثرة المثرين منهم لا تنال نعيمهم الى ذلك العهد وجها من وجوه المراج ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة ، والابل ، والرقيق ، والاراضي للزرع والفراش ، والاراضي للمعدن ، . أما الذهب والفضة فهما الوسطة العظيمة في تبادل العروض والاعيان

ومن مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منها شيء كثير . من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدو له في وطنه (مكة) أدت تصاريف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في المحل المسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لاصحاب النبي (ص) ووقع في أيديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً اقتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فكانوا الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو عشرين قنطاراً مصرياً من النقضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل ضيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه مائة . وما هو بالمقدار الكبير والكم يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتسرها عند القوم . وها هو ما ورد من انهم افتتوا على حرب النبي في أحد رشح العير الى جباء بها ابوسفیان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النفود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلت النفود الأجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النفود المكتوب عليها بالعربية

وأما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الفنى والغناء، والنعمة والهناء، من درتها الغذاء، ومن أوبارها الكساء، ومن جلودها الماهون والحذاء، ومن يرها الوقود

للطبخ وكشف الظلماء ، وظهورها مرآة كسب للظلم والحمل والنجاء ،^(١) وبطونها أعظم بها واسطة للنماء ، فبميشك أيها المطالع ! في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحداً مثل هذه البركة ، التي لا تحتاج إلى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يمدُّ مالا في جميع جهات الأرض وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق وإذا صرفنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى أن لاشيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها ، النامية بطبيعتها ، المدركة بخلفتها ،

وأما الأراضي للزرع والغرس فكان فهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولي قریش من كان يملك أراضي في الطائف كمثبة وشيبة ابني ربيعة (من نخذ بني عبد شمس) وغيرها

وكان نظر القوم إلى الزرع والضرع أعظم من نظرهم إلى الذهب والفضة فقد مثل بعضهم عن الذهب والفضة فقال «حجران يصطكان إن أقبلت عليهما نقداً، وإن تركتهما لم يزيدا، إن أفضل المال برّة سمراء، في تربة غبراء، أو عين خرّارة، في أرض خوّارة»، أشار بهذه الكلمات القليلة إلى أن الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الأرض التي هي أول رأس مال أما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الأعمال فقط. وهذا هو الأسّ الصحيح في علم تروية الأمم وأما أراضي المدن فالظاهر أن بعضها كان مشاعاً وبعضها كان مملوكاً أما كون بعضها مشاعاً فنأخذ من عادة العرب في جاهليتهم من أنهم لم

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها
حماية وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية التي هي
حق للغزاة العمومية خزانة المملكة . واما كون بعضها كان مملوكاً
فمنستفيدة مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي^(١)
الذي كان يملك معادن بني سليم . وكانهم اشيع ملك بمض الناس بمض
المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح ان يقطعه شيئاً منها
فقد طلب بلال بن الحارث ان يقطعه معادن القبيّة (منسوبة الى قبل بفتح
وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة ايام فأقطعه أياها
وأقطعه جبل قدس للزرع

هذه هي أصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف
اليها العروض والامثلة التي كانت تتداول في التجارة والى مثلها يؤول
اليوم كل ثراء فاز ملك الارض والمعادن لا يزال ايضا يندوعاً زوراً
للثروة ، واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق
اعني ان فائده المادية كفائده ، والنقود لا تزال كثرتها وقلتها ايضاً مقياساً

١) الحجاج بن علاط ليس بفرضي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجاً
من قريش « من بني عبد الدار ربه خديجة » وكانت أمواله تستثمر في مكة وكان
مكثرأ من المال . أسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي « ص » فقال له أن لي ذهباً عند
امرأتني « في مكة » وان تعلم هي وأهلها باسلامي فلا مال لي فأذن لي لاسرع السير
واخبر أخباراً اذا قدمت أدرأ بها عن مالي ونفسي فأذن له النبي « ص » وقدم مكة
وأخذ أمواله بحيلة

٢) جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظيما ثروة الامم، وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للمروض والامتعة والاثاث والرياش .

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه او السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على ان يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهودا فيهم او يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالمؤاجرة او المضاربة فلذلك لم تصعب التجارة على السيدة «خديجة» التي كان لها ما لنساء قومها من الاستقلال في أمورها ولم يكن لابيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كانت تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا

وفي ايثار هذه السيدة ارسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المراهون دلالة على بمد نظرها، وعلو هممتها، وعظيم عطفها وحنانها على وطنها ان الأوطان تسمو باقدام أرباب اموالها على نشر اسمها في العالم اليبع وانشره واضهار صنوف الثراء، ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود

الفصل التاسع

زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم

تزوجت خديجة قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) مرتين تزوجت أبا هالة النبأش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي. وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الإسلام أي أن الرجل يخطب إلى الرجل بنته أو من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . وأما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الأخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرانف والكرائم، وإنما يفعل أغلب ذلك الإماء والحقاتر

وولدت هذه السيدة ولدًا من أبي هالة وسمته «هنداً» على عادة العرب إذ كانوا يسمون للذكور أحياناً أسماء الإناث فهند هذا هو ربيب النبي (ص) أخو فاطمة لأمها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الإسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ص) المشهور في الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيمجب القارئ من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لانكتمه السبب وذلك أننا نحب أن لاندع شيئاً مما يملق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملًا ولا سيما بعد أن رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يترضوا لذلك ولدها هذا فكاد يضيع ويحنى الأعلى المنقبين في بطون الأسفار الواسعة وعذرم

في ذلك انهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفم بزواج النبي (ص)

وان لنا - والحق يقال - حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممن مضى فيمسيكون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يقطعونها ويجذبونها إلى شيء آخر

على اني لا أنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان. فمن ذا الذي يعلم ان هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد ، صلى الله عليه وسلم وولدت منه « فاطمة » الزهراء أمّ الحسنين ثم يرجع باحداً عن ابنها ذلك من زوجها الاول ابي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها إلى هذا المقام تضاءلت امام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك إلى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السمود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفيض نوراً وسناء ، وليتبارك كمالاً وبهاء

الفصل العاشر

محمد (عليه الصلاة والسلام) قبل نزوح خديجة

واذا العناية صاحبت مرءاً فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما
ودع التردد ابن أذاك حديثه مهما حوسى مهما نما مهما سما
لاتسأل كيف أبدع الإنسان فنق الكواكب من رتق موادها،
وقدر مدارات لحركاتها، ونظامات اتقاليها، وأنشأ منهن المقسمات ليلاً
ونهاراً، المدبرات صيفنا وشتاءنا، الناظمت في أحشائهن شملنا، المذات
بنسائهن نسائنا، وبأرواحهن كيانتنا، ولانسأل لم خلق لنا الأرض جميعاً
نشرح أحشاءها، ونقطع أوصالها، ونستخرج أفلادها، قد حصرناها
على عظمها في بدنا، وحشرنا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، ان
شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش
اللبابنا، ويسحر أبصارنا، وان شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا الى
غيرها، فاطلعنا الى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارك الأسرار
ومغاربها، وارتفعنا الى ينابيع الكوان ومظاهرها، وتلمسنا نمة حياة لا
نحتاج فيها الى ماء الأرض وهوائها، وتراها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صوراً معشر الانس وتباعدت حقائقتنا،
ولم طالت اماننا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشعت نفوسنا
بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، ونخالقنا في تمييزها وارجيح

بعضها على بعض، وتدابراً في مناهج طلابها، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها، ولم هذا البون في أنصبائنا، والفرق في صرامينا، والبعد في مدارجنا، والغبن في ممارجنا،

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم ساجدة في أفلاك الحقائق، وبروج الرقائق والدقائق، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور ولاحقها، بادي الشعوب وحاضرها، وآخرون مع الديدان مشاعرهم دابة بين أوراق الآجام وأحطابها، أو تحت دخان القفار ونقعها، ومع المصنف صورهم منظوية في احشاء الاول كل، ومندرجة في الاواخر مع اخوانهم الاول

لاتسأل عن هذا كله ان كانت نفسك قد وقفت عند مطمأنها من معرفة الاول الآخر، الظاهر الباطن، ذي الحياة الازلية الساري سرها في الاكران والوجودات، البادي خط جلالها وجلالها على لوح الآيات اليبينات، من الاشكال والتنوعات، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ان في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآياتٍ للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتناؤكم من فضله ان في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون * ومن آياته أن قوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوةً من الارض اذا أنتم تخرجون

اذا وقفت نفسك عند هذا المظان من المعرفة فلعلها تصل بك الى معرفة ان ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا ان نحيط بأسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مدار كنا، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرها، فأخاف بأحدنا أن يتذكر في هذه المساح الفكرية عجز أجنحة عقولنا عن أن تصل بنا الى مادون هذا السرا الأعظم، ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن ترقى بك هذه المعرفة الى الاذعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على ما يختص بها ممن يشاء الله الامر كله فيما يبيدي، ويصور، وله الحكمة فيما ينوع ويميز، منه كل شيء، واليه المآب

وان كنت في ريب من الحكمة الازلية، والعناية السرمدية، فدع نفسك واقفه ماشاءت في عمة النبي، أو دائرة في سجن الشك، أو طائفة في جو الوهم لاقرار لها. وانما نحكي هنا للذين هم بربهم يؤمنون



سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شمو ب كثيرة الى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع به اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي اعتده الله للعرب أعظم نصيب لمبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب ^(١) من كبار أشراف قريش ورزق عشرة أولاد

«١» اسم عبد المطلب شيعة وتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاتما =

من الذكور وكان ابنه عبد الله أحبهم إليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بني زهرة تدعى آمنة خملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن فما أسمعك يا عبد المطلب أ كنت تدري وأنت في أجواب أبرهة الحبشي تتطأب منه رد ذلك القليل من الإبل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعةً لذكركه

أ كنت تفكر اذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنقطعين في تلك البرية ان اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كما ذكر نسب حفيدك العظيم الذي أعتهه الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم الى الابد

أخطر على قلبك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه الا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية أ جاء في خلدك ان كنتك آمنة الزهرية اما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ويقيم لهم مجمد مع الدهر مذكوراً، وفي كتاب العالم مسطوراً

= كان قد تزوج أمه من بني النجار في « يثرب » (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجراً نخرج تجارة الى الشام فأتى في « غزة » فذهب أخوه المطلب بن عبد مناف ليأبى ابن أخيه فأبى والدته أن تعطيه إياه حتى أقنعها بأن أمانته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه حمامه على بعير فظنت قريش انه عدائنا فعاولوا عبد المطلب وقال لهم المطلب وبحكم انا هو اس أخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتد بهاء وصارت كأنها علمه

هل كنت ملهما اذ سميته محمدا؟ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له
العالملون تحميدا لا ينقطع، وتجيذا لا يزول؟
أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك اياه وعنايتك به انما
كنت تحفظ للعالم كله النخفة التي آتاه الله من كرمه، والوديعة القدوسية
التي اختص الله بيتك اظهرها، وقومك لا تتشار بمباديورها
فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير اياها المخصوص بمناية
الحمي الأزلي، فليدم ذكرك جلالا للمحافل واسمك ساميا مع اسم حفيدك
نبي الشعوب وبركة العالم * *

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما
الصلاة والسلام اي حوالي سنة سبعين وخمسمائة منه وحوالي السنة الثامنة
والاربعين من ملك كسرى اوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني
الامم . تواريخها ولا سني انفسهم وانما كانوا يحفظون الأعمار ويوقتون آجال
الأشياء بالقوائم الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الاميين الى عهدنا
ولدعالم القبل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور
صفوة حكايتها على حرن فيل القائد النجاشي وابائه المسير لقاء مكة لذلك سميت
بهذا الاسم . وحادثة القيل شديدة الشهرة ويصح ان نقول انها من التاريخ
المقدس عند المسلمين أي انها ذكرت في القرآن ولكن على اسلوبه في
القصص التي يذكرها لاجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونبأ الاخبار
وقد أعطي لمرضعة على عاة قريش في اعطائهم الأولاد للمراضع
من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء ان تتربى أجسامهم في البادية حيث
الارض النظيفة قد كسبت من الازاهر أدمع الفارق الطبيعية، والنسائم

متحملة من ذلك العبير تهديه الى النفوس راحة وغاذية

اذا بزغ رأس النهار أرسل الى أئمة أهل الشاطروحاتاً بشراً بطيب عقي العمل، وسوء منقلب الكسل، وكان بينه وبين سكان البراري وساسة الانعام تهدأ ان لا يقبل بطامته الباسمة الاوهم مستقبليهم بالتحيات الطيبات من مباسم همهم، وثغور اجتهادهم، ورافدون اليه آيات الشكر على ماله من الايادي البيضاء في اخضرار عيشهم، وايضا وجوه آملهم

بزغ الفجر يوماً دلي نسنتين في أباطح تهامة قد أسفر عليهما البشر، وتغذت النبطة من أعماق جوانحهما الى أسارير وجهيهما، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من عجالي عرائس الطبيعة لان السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم، ولا أوفقت رياضهم، ولولم يصن الوادي لهم التليل مما اغنيوا به مرة لقتلهم الظلم - ولما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لانهم لم يكونوا يملكان الانميات قد جارت عليها السنة، وقتلها الجهد والجذب، ولكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصاباها فالايتها فرحاً، وأشبعتهما ابتهاجاً، ولم يكونا يفتران عن هذا الحديث الذي كما يتغذيان به صباح مساء، ويجددان به شكرياً على هذه النعماء، وهذا ما كانا نتحدثان به :

- حقاً يا حليلة ألك قد جئنا بتخفة سنية ونسمة مباركة

- أي والله يا حارث وانظر ما أجله، انظر الى هذه الاشفار الهدب،

انظر الى هذه العيون الدعج، انظر الى هذا الجبين الازهر، انظر ما أبهى

انعكاس هذا الضياء المقل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد صبيحة

يوم كما قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبدالمطلب

لترضعه وقد حدثت هي بديتها كيف جاءت به وكيف رأت من بركته قالت
خرجت مع زوجي وابن لي صغير على أنار لي قراء^(١) . معنا شارف^(٢)
لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من
بكائه من الجوع ما يئذي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغنيه ، وإلكما كنا
نرجو الفيث والفرج ، فخرحت على أثنائي تلك فلقد أذمت^(٣) بالركب
ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة لنتمس الرضعا فمنا امرأة الا وقد عرض
عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قبل لها انه يتيم وذلك انا انما
كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكما تقول يتيما وما عسى أن تصنع
أمة وجده فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمتم معي الا أخذت
رضيعا غيري فلما أجمعنا الاطلاق قلت لصاحبي « والله اني لا أكره أن
أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعا والله لا ذهبن الى ذلك اليتم ولا خذنه »
قال لا عليك ان تفعل عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت
اليه فأخذه وما حماني على اخذه الا اني لم أجد غيره . قالت فما أخذته
رجعت به الى رحلي فلما وضعته في حجرني أببل عليه ثدياي بما شاء من
لبن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام
معه قبل ذلك . وقام زوجي الى شارفنا تلك فاذا انها حافل^(٤) خلّب منهما ما
شرب وشربت معه حتى انهننا ربا وشبعنا فبتنا بخير ليلة قالت . يقول صاحبي
حين أصبحنا تلامي والله يا - ايمه قد أخذت نسمة مباركة قالت فقلت
والله اني لا رجو ذلك . قالت ثم خر حناو . كت أثنائي وحملة عليها معي فوالله

(١) النقرة بالسم لون الى الحصر . أو يأسر فيه كدرة . حمار أقر . أنار قرا

(٢) « الشارف الدقة المسنة » (٣) أذمت بالركب أي حبستهم لا تقطاع سيرها من

عجبها أي هزأها وضعفا « ٤ » حافل كثيرة اللبن

لقطمت بالركب ما يقدر عليها شيء من حرهم حتى ان صواحي ليقان لي
 «يا ابنة ابي ذؤيب ويحك اربعي علينا»^(١) أليست هذه أمانك التي كنت
 خرجت عليها؟ فأقول لهن بلى والله انهما لهي . فيقلن «والله ان لها لساناً
 قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أئلم أرضاً من أرض
 الله أجذب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شبعا ابناً
 فنحلب ونشرب وما يحلب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان
 الحاضرون من قومنا يقولون لرعايتهم وياكم امرحوا حيث يسرح راعي
 بنت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياً ما تبضّ بقطرة لبن وتروح غنمي
 شبعاً لبناً فلم نزل نتعرف . من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته
 وكان يشب شباباً لا يشبه الالماني »

فيالك من سعيده يا حليلة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيته العناية
 الخاصة ولم يكشف لك من آمارها الا هذه البركة التي ملأت يدك ويا لمن أيتها
 المراضع الغيبات المعرضات عن اليتيم التماساً لرضعاهم الذين لهم آباء . لقد فاتكن
 الحظ وما الحظوظ بالاختيار ، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتيماً
 * * *

بعد ان ربي « محمد » (ص) في بني سعد عند السعيدة حليلة جيء
 به الى أمه فذهبت به وهو ممتلئ قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة
 لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان
 يسمى الأبواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو
 الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودّعه مفارقاً هذه الدار وأودعه لدى الجنب
 الالهي الذي من لذه وارادات البر والبركات اليه ، ونوافج الرأفة والحنان عليه ،

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق عبد الله ابي النبي (ص) فادخله في آل بيته وتعمّد تربيته وثقيفه

وكان ابو طالب امراً نبياً شهماً صادق المروءة، ماضي العزيمه، نصيراً للعدل والانصاف . عرفنا كل ذلك فيه من تكليفيه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه . وقد خلف ابو طالب أباه عبدالمطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج المز والسودد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي، وتنطمع في جوهه الكريم صور البر والعدل والإحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي التريه (أبو طالب) نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ولكن لماذا لا نقول ان إعداد ذلك المفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به

أما تربيته اياه التريه الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسدية لهذا المبارك لانظير لها وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم ير مثله . ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن التريه الجسدية

واما تربيته اياه التريه العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس وأساطين العقل وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المبتعدة في دارها عن مناشئ الارتقاء العقلي، ومناجم الإشراف التكري، لا كتب يدرسونها، ولا قوانين للمعارف يرتبونها، ولا شيء الاغرائطية يتوارثونها، وقواعد عامة يتناقضونها، وحصافة أوتوها

في نقش أصبح التجارب في المدارك، والاحتفاظ بأثبت الفوائد في الذواكر، وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل، ودروس القصد والاعتدال في معارج الأمل، فيأتي من تلك السلائل التي لم تاحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ في العقول والاخلاق، أفذاذ في المهمة والاعمال، بطبع من المربين، ونقش من المثقفين، وذلك كان شأن أبي طالب ودأبه مع ابن أخيه العزيز، وربيته النجيب، نشأ « محمد » (صلوات الله عليه) في أمثل التربية بأنواعها كلها على يد ذلك الفاضل العظيم نجاء منه رجل أحسن الناس خلقاً وخلقاً، أذكاهم عقلاً، وأزكاهم نفساً، وأصدقهم لساناً، أنداهم في العرف يداً، واثبتهم في الأزم قلباً، أرحمهم للضعيف، وأشجعهم على القوي، أبرهم للقريب، وأعد لهم للبعيد، أقربهم الى المعروف سمعاً، وأبعدهم في الامور نظراً، أسداهم رأياً، وأشداهم اقداً، ألينهم للصاحب جانباً، وأكرمهم للخير صاحباً، وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم فزاده جلالاً وجلالاً وكمالاً والله أعلم حيث يجعل رسالته

نشأ ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثنتي عشرة سنة سار به الى الشام وكان أبو طالب تاجراً فأوقفه في هذا السفر على ما تكن الارض وتلن من طبائع الاقاليم المتغيرة، وأحوال العالم المتحولة، ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل أمم كانت قبائل كانت على وجه الارض جبالاً لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعماتهم طراً، وطارت نعمتهم جميعاً، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً، وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية

أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من القوائد. ولقد كان فيما أوحى الى هذا المنم عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه وأولم يسيرا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها، ومزارعها ومصانعها، ومتاجرها وحكومتها، وأراه كيف يكدر الناس جيما ليا كل نفر منهم خبزه بعرق جبينه، وليتمتع نفر آخرون بشمرات تلك الارض الطيبة، ونفائس ما تعلمه تلك الايدي الثقفة، وكيف يعمل هذا لهذا في الاجتماع ليم قوامه، ويحفظ نظامه

وسر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزاخرة في هذا الحطام الزائل، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح النرية في هذا الهيكل الجسماني، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما بقي البدن من جوع وعري وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها، وبمض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في «بُصرى» وقف به على الراهب «بحيرا» وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأ بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مرّنه على أساليب التجارة، وأطلعه على ضروب البضاعة، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف

يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ما ليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية ما ليس في ألف درس من التربية الكتابية أو النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس فرأى في هذه الواقعة كيف تعبأ الصفوف، وتتقابل الأبطال، وكيف يصبر الشجعان وإن أودى بهم الصبر إلى حتفهم، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب، وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جنباً، وتخور عزائمهم جزعاً

ولم يباشر في هذه الحرب قتالاً وإنما كان ينبئ على أعمامه أي يناولهم النبل أو يرد عنهم النبل . وكان ذلك كافياً لتمرنه على مواطن النزال، ومواقف النضال، وليس يخاف أن الأخذ بيد الناشئ إلى معارك أبطال المبايعات، ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات، هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلاً للمقامات العلى بين الرجال، حتى إذا أتاحه الله للاخذ بقوم إلى سوح المز والسودد والصلاح والفلاح، كان نعم الدليل الهادي، ونعم السائق والهادي فلما بلغ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا « خديجة » أن يخرج في تجارة لها إلى الشام وتمطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بقبول ذلك وطلب له أضغافاً فرضيت وسار بتجارتهما مع الركب إلى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه « ميسرة » فلما رجع بالبضائع إليها باعها فربحت أضغافاً وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة « خديجة » معه

الفصل الحادى عشر

(الحب الشريف)

إن أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة الا من خصائص
النفس فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تقتر نظرات بصيرته
الى النفس فهي مستقر الخوارق ، ومستودع العجائب
النفس مجلى الآيات الكبر ، ومهبط القيوضات العلى ، والمرآة العظمى
التي ينكشف بها الازل والأبد ، والمطبعة العظمى التي ترسم بها الاشياء
وتتكرر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبايع ، ومقيم الشرائع ، وبين
الجواهر المتألفة الصامنة ، والظواهر المسخرة المطيعة ، فهي خليفة عليها ،
واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ، وهي مجذوبة من طرف إليها
بجاذبية الانس والعادة ، ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها
بجاذبية الحب والشوق ، فبأنجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر
حظها من الانكشاف ، وبأنجذاب النفس الى مانح الظهور تأخذ النفس
حظها من الشهود والاشراف ، فيحق لها في الحاليتين أن تتمجد بما ميزها
به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين
المتضادتين أعظم زاميس الاكوان والوجودات كلها ، لكن اختلفت

الحيات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذى تدور فيه، ولاتصالها بعالم الحس وعالم الغيب، وتردها بالانجذاب بينهما فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذى هو وصفه ، وان ارتفعت الى المبدع دهشت فتولحت فتدلت لما هنالك من المجالى الازلية التى تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والذائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرغبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتفاع والهبوط ، كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارهما . وكل درجة من هذه الاشياء فاعما هي على مقاييسها ، هما بالاختصار ركننا السعادة والشقاء ، فن هدى الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظاً من الخير عظيماً



كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف فاذا أحبت سيدتنا هذه؟ كان قلبها تَوَاقاً الى معالى الامور، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق ، وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيماً فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التى تليق بالانسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تندرج في زمرة عشاق المجالى الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أرواحها،

وانفتحت أنوارها، فكان لها تشوف الى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور، فكانت تهدي بها فيما هي حائمة الروح عليه من الفضائل، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله، فلما عرفت ابن عبد الله ووجدت فيه ما يمشق من المزايا العلية، انتشرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقت في محل من قلبها لتنبئ شوقاً الى هذا الرجل الصالح الذي ألفت المكارم كلها لديه، وأيقنت ان معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة، هو أعظم الآثار التي كانت تشوف اليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت حبة الفضائل والحمد أعظم من تجلي الفضائل والحمد فيه فكيف ينفر منه قلبها، بل كيف لا يميل اليه فؤادها؟ فالامانة هو ذلك الشهير فيها وقد سبرته في متجرها فربحت بواسطته أضعافاً، والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب، والنباهة هو الذي تسطمع في عياه طوعها، والحكمة هو الذي تقرأ في سياه آياتها، والعفة هو ربها، والمروءة هو مجمع شواردها، ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها، فأبي الفضل تنشد بمدحها حبة الفضل، وأبي المحامد تريد بمدح هذه مريدة المحامد؟ كمال خلق وكمال خلق، جمال شخص وجمال نفس، حنكة لم يظفر بمثلا أقرانه من الشبان، ووقار لم يحظ بأقله الكبار، وهمة لا تقف أمامها الصعاب، وعزيمة لا تني أمام الثقال، قوي شديد، حلیم رشيد، كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فن مثله في الناس أي مؤمل إذا قاسه الحكماء عند التفاضل ؟

حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلها عنه ليس بنافل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الابطال
فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول
فأما كثر غبطة السيدة «خديجة» اذ عرفت هذا السيد الجليل، وما
كان أجدرها بأن يتماق قلبها الطاهر به، وما أقوى نور فراستها اذ علمت
انه لا نظير له، وان سعادتها لا تتم الا به، وما أحقها ان تغتنم الفرصة وتسبق
الى تزوج هذا الشريف الذي جمع الى شرف النسب شرف الخلال

الفصل الثاني عشر

تأؤل هذا وقته

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الازمنة
الى زماننا هذا وكان علماء التوراة ينبئون دائما بظهور نبي متظر وبعضهم
كان يقول انه سيظهر من العرب . والراهب ببحرا تفرس بابن أخي أبي
طالب اذ كان معه صغيراً وقال له: سيكون لابن أخيك هذا شأن : ولم
يكن بعيداً عن المؤلف أن يخبر بعض الناس بالمفنيات ولكن لم يكونوا
يصدقون كل شيء من هذا القليل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن
في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكنن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم
يكونوا يبالون بتلك الاخبار لانهم تعودوا أن يروا شيئاً من كذب
الكهانة مع مصادنة صدقها أحيانا فلم تكن الثقة بها في الحقيقة آمنة
ولا سببا في الامور العظيمة

وبينما نساء من قریش مجتمعات في عيد لمن في الجاهلية اذ تمثل لمن رجل فلما قرب نادى باعلا صوته : يا نساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاع منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . فكذبته ورمينه بالحصى وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا النبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يميأن في الغاب الاباهل الشهرة . ولكن كان قومهن يمتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولاً من هذا القبيل ثم يغيب فكان السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلها صدقت اذ ذاك وتساءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذا الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجنب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنسوة لا تعظم الا من العارفة بذلك الجنب الاعلى الذي يتفضل بخلمة النبوة على من يشاء كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني اسرائيل ومعروف ان النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلعه على مالم يطلع عليه أحدا من أسرار عالم الغيب ، وليست النبوة ملكاً أو حظوظاً زائدة من نعم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقايين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس ايامهم وتعميدهم . والنساء انما يرغبن بالنعيم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي وكل هذا لا يرجى لدي الانبياء الذين تنصرف

(١٣ خديجة)

أنظارهم عن متاع الفرور ويلفتون الى ما فيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة «خديجة»

ولما رجع عندها «ميسرة» من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي «محمد» أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها الا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين الباركين فما لبث أن رن في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بأذنهما، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد. وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات :

«تقاؤل هذا وقته»

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب «خديجة»

كانت «خديجة» تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تميز على خواطرها ما حكاها لها عندها «ميسرة» ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف ؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مرّ بقلبها خاطر آخر يقطع عليها هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام - التي كانت تراها في اليقظة - ترجع الى الشيء المحقق الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجبى وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال، فتتمثل في فكرها تلك الطامة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العيينين الدعجاوين، وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق، ويقوى إيمانها بالملائكة اذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والطهارة، فتقول في نفسها أفليس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قریش الوحيد الذي كله الله ان لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبا به المهاتف

ثم تتراجع اليها الخواطر ويقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبه في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى: من لي بهذا المكمل الذي مال اليه قلبي، وحامت حوله خواطري، وعكفت في دائرة محاسنه نفسي، أليست تتمم العادات بأن أكون أنا الخاطبة؟ أف للعادات ما أثقل أحكامها، وما أظلم قضاءها، وما أشد عتمة مسالكها، وما أسوأ عواقب الجود عليها، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزون عنها، نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر، فانطعمت عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين، وغمت عليهم مطالع السمادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أف للعادات فهي قاطمة الطريق على نتائج العقول ترجعها في مهاوي المدم، وأوتذرها في سجن أقفر ممنوعا عنها كل ما يربها، وباعجبا

لبنى آدم الذين يضعون المادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على دقو لهم وقلوبهم أليس لهم ما يذكروهم بأن المادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم أليس لهم ما يبصرهم بأن المادة يجب أن تكون تابعة لامتبوعة ، وهنقادة لافائدة ، حتى اذا فتحت أمام بصائرهم أبواب أخر لما هو خير ودعوا عاداتهم تلك محدودة على قدر مانفعت ، ومذمومة على مبلغ ما ضررت ، واستقبلوا أخرى مصاحبيها على مقدار ما يدوم من أسبابها ، وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة » بالعادة كثيراً ، وتأفقت من تقلبها طويلاً ، وسردت كل سيئات الجود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج ، لما خصها الله من سلامة الفطرة ، وفضل الفطنة ، وقوة آلة المعرفة ، ومزيد حرارة الهمة ،

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الا كثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت ، وأحوال مضت ، ورأت ان الناس يرثون من السالفين كل شيء ولا يميلون الى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميله شديدة على يدعاصف من الحوادث ، أو هبة شديدة من إرادة بعض الاشخاص ، وكم دكت الارادات القوية أطوداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجدد بأساً بأن تخطبه بنفسها لانها كانت قوية الارادة . ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الاربعين من العمر ، وهو في الخامسة والعشرين يشف حياه عن ماء الفتوة ، وينشر شذى الشباب ، والمرأة مهما قوت ارادتها تذكر

الخحية فيطلب احجامها اقدمها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي الخطوبة

ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجد ضالتها من السعادة ولا تستطيع الاقدام على تحصيلها هي صعبة على الرجل أيضا ولكنها على المرأة أصعب لأنها أضعف على كل حال . بيد أن ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمت نعمتها وعلت كرامتها لديه . ففوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزdan بها ، ومن عطل من هذه الحلية منهن رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلى وأجل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمت المرأة . والجن من ضعفها ولولا لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحياتها ، وماذا تنفع شجاعها أمام خشيتها من الخحية ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزيجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بمدان كان حبة صغيرة ألقيت فيه

الهم رحماك فليست القلوب من حديد ، ولم تقد من صخر ، ان نسيم الخواطر فيها يصدع ان جاءها برائحة الياس ، ويرأب ان اتاها برائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائبة ، بيد ان رجاءها كان أغرب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها اذ ذاك لا نقاب رجاؤها يقينا . ولكن تستكمل الفرائز حظها من النفوس كتب على الانسان ان يغيب عنه آتية من السعادة والشقاء فترى منحوسا يضعك ويلب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه يائسا أو يصبحه وساء

صباحاً . وترى مسعوداً يتململ ويمسي ويصبح على مضاجع الخيرة والارق
واجماً سادماً والسعادة من حوله مرفرفة باجنحتها ستقف مما قريب على
رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك الى
هاتف يبشرها بقرب اتصال السعادة التامة بها . ما أشد حاجتها الى من ينبئها
بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أنتدت لذلك الذي ميزته العناية الازلية
أكل تميز . ولكن ليظهر مزيد فضلها في الميل الى رب الفضائل والمكارم
التي لا تباري حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت
الخواطر حظها من قلبها الكريم وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف
لذلك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد
اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها الى بعض وكان جديراً
أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفة الله في الارض نفي الانسان .
كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظاً في هذا الناموس
الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من « خديجة » الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت
جديرة ان تتناول هدية سعادتها ، وتكشف لها الحجب عن الرحمة التي

ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة
خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤاده ارسولاً
تسبر به رغبته وتستنبي به سعدا مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن
وساقها الى هذا الخاطر قوة رجاها بالله سبحانه وحسن ظنها بأن هذا
المكمل لا يرد رغبة مثلها وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها
في سواها

كانت لها صديقة اسمها «نفيسة» (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت
عليها حديثها واثمنتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة
هذه الامانة لانها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتى اذا وجدت
محالا كانت وكيلة بأبداء القبول

لم تكن النسوة اذ ذاك محتجبات ولم يكن ممنوعات من مكالمه الرجال
فلم تكن رسول «خديجة» محتاجة الا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المييب
العظيم وقد أمدت من سعد مرسلتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فقل ماشئت في تيسير ما يرجوه

جاءت «نفيسة» هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس
بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك أن تزوج فاعتذر لها بقله المال اللازم للقيام
بشؤون المائلة قالت له فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة قال
لها «ومن؟» قالت له «خديجة»

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظار ما سيبدو منه وأحدث هذا الكلام
حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ الا بقوله :
خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة ، هي الموافقة ، هي الصالحة

اذهبي يا نفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشري وكانت ميمونة النقية في هذه الرسالة
فالله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ولم تنتظر كثيراً حتى أتى
خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبد العزي « هو الفحل
لا يقدر أنفه » وهو مثل عربي يقال للكفو الذي لا يرد أن خطب
ما كان هذا الخاطب الكفو غنياً إذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً
فهو من آل عبد المطلب العاصرة بيوتهم بقرى الضيفان واثانة اللفان في
هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب
وأبواب المراج بما أوتوا من الهمم والشم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار
المعدمين وإنما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقدار أكبر . فمع قلة ماله
في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لأن إعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة
عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً إلى رؤساء ديانات، ولا تلاوة الرؤساء
صلوات، بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها
ورضا الرجل، فبخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة
وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخاطب . وهكذا أصبحت
« خديجة » الطاهرة زوجة « محمد » الأمين بكلمة أعلنها عمها عمرو بن
أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القرين !

الفصل الخامس عشر

(بيت خديجة بعد الزواج)

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله اليها فألقت الى يد هذا الامين بكل ما تملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والمائل فان سيدتنا لم تكن — مع تدبيرها — بالشعيحة الكاظمة على المال الفاني بل كانت قد خلقت لتكون مساعدة على الجود . وهل بعد معرفتها بهذا الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأياً يفاير رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان تزداد كما لا كلما أشرق لها من سماء الفيض الالهي نور منه وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأمناً ، فقصدته الايام ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحوال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احياناً تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقضي به الانسانية ولكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين الشكوك والالوهام التي تنهى عن الاتفاق خشية الاملاق أما سيدتنا

(١٤ خديجة)

فكانت ترى إتفاق زوجها ومساعدته للمسررين وأخذه بيد المائلين من جملة المزاي العالية التي تقرُّ بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح

وكان هو لاهيا عما أعيد له، وعابثا بمثل ما يبعث به أثرابه، ولم يكن هذا الصبي يتجمل بل كان أبوه حيا ولكن أبناء السعادة، أبناء المجد الابدي، أبناء المجد السرمدي، تستأثر العناية الازلية بكفالتهم وتربيتهم بصورة خاصة وظاهرة براها من استمدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالا يتام في غير بيته لأنه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير «أبو طالب» ولكن اشتداد الازمة في احدى السنين اضطره ان يقبل رجاء أخيه «العباس» وابن أخيه «محمد الامين» بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الامين هو علياً الذي صار الامام أباً للأئمة، وبدر سماء السيادة في الأئمة

كانت تربية علي في هذا البيت من جملة المكتوب للسيدة «خديجة» من

حسن الحظ فان الغيب كان يمهده لأمر جليل له علاقة بهذا البيت لعله لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم، ومن أين كانت تعرف السيدة «خديجة» أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعدّه الغيب ختناً كريماً وبعلًا صالحاً لبنتها الصغيرة، وكيف تعلم

أنه لا يتسلسل لها عقب الا من تلك الكريمة «فاطمة الزهراء» وانى يخطر في بالها أنها انما كانت تري هي وزوجها جدا لعثرة تتصل بهذا البيت سيعدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلاً عالية المنار، عظيمة الشأن

نم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نم ! نم ! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ولكن كان هذا البيت المملوء نعماً يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم لأن لاهله نفوساً لا تعرف الاستثناء ، بل تراه من العار والشنار ، لاسيما اذا بنس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فأنما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح ، كما كان مسعداً للشباح ، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبياً قد كان مهدياً لا كرم الآداب وأعلامها فان علياً المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الاكبر الخليلق ان يكون مثال القدس وزكاء النفس ، هو مجتم المالمى وملتقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى فأن كرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته ! قد رأينا الامين بحمد فيه مجالاً للتخفيف عن المتقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد صدوراً رحبة ، وأيدي مبسوطة ، ولديه خيم الجود والسخاء ، كما خيم المدل

والوفاء، ومنه اشترقت الآداب العالية، والتربية الكاملة، وماذا نرى من
بركات هذا البيت بعد ذلك ياترى؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرقنا الآن على بحر كثيرة لججه، صمبة مسالكة، وصلنا الى ساحل هذا
البحر ولا بد من جوزه، وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته، ولا بسو
توب الهداية رأس مالم الدعوى، وما حيلة الحائرين غير الرجوع الى الله
في الجهر والنجوى

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه، وتشتاق أن تقف على روحه
وحده ورسمه، هنا قد بلغنا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن يعلمنا كان من
دأبه أن يتعبد بمض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه «جِراء» فهاهو
هذا التعبد وكيف هو، وما الذي ساق نفسه اليه، وأي دين فرضه عليه؟
هذا هو النبأ العظيم الذي تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا
تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه، واذا أخذنا بإيضاحه نخشى أن
نبعد بالقارىء عن سياق السيرة، ولكن يقوي عزنا على هذا الايضاح
ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء
أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

ان الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بدل السبلة
«خديجة» لم يكن تابعا اذ ذاك لدين لأن دين قومه كانت عبادته عبارة

عن تجييد بعض الاحجار التي هي عندنا تآثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تمود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها هي بحسب الظاهر أعمال وحرركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان يعمل هذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه لقاء باري السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب اذذاك اليها، ولم يكن مقيما أعمالا رسمية

ان البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلف به مشرح اللغة ، والبحث عن اسباب اختيار الاقوام السالفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلف به مشرح التاريخ ، أما البحث عن الاشواق الروحية أو التعب المحمدي في « حراء » فيكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

العبارة لا تشفي الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط

هذا الموضوع بهذه السيرة داعية الى السير في هذا البحر العظيم قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نعرف بالروح ولو قليلا فاذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن نعرف بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهي كل امرئ لان كل واحد منا تخطر في باله هذه المسألة :

ما نحن ؟

هذا سؤال قد علم الدين بمدّ نظرم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم وهو أساس ما يسمى في لغتنا ديناً وديانة وملة وأحد الاصول والاسباب في ترقى هذا النوع الانساني وتكمله

هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . وهنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يبتدئ مجراه لأجل ادراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال، اذ لا براهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه ، ولكن اذا عزّت هذه البراهين لا يدمع عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ومن فضل الله على اهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ولا يحرمه الا قليل تزامن فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملكت آيات ، فاذا حالت دونها الحجب لجّ العقل في محارات أو عمايات ، واذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات انها لمن تأمل مراتب وصفوف ، ولكل وجود قوة، ولكل قوة أثر ، واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ملاح له من وجود وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم تزده عنها الا بمدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عادته الى

أسماء فالروح للانسان اسم للقوة المعطى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا بقول أنا ويقال عنه هو وان غفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشتد تباينهم وحرار نظرم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحث كالباحثين ، وحررت كالحائزين ، ثم وجدت كالواجدين ، فلما ألذها على القلب من حيرة عقباها بلوغ النابة والحمد لله رب العالمين اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسني وشموري من غلافه ، كإنصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأني وليد هذه الساعة ، لأنني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الا كوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والالوان ، ولم أكن أشعر بلاثماتي ومؤلماتي ، فكأنني كنت غير هذا الموجود الجديد ،

أين كانت لذتي بروية هذه القبة ، وأنسي بما على هذا البساط ، وأنني كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواجر هذه الغبراء ... ومن حولي الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، وأريج زهور ، وبدائع نقوش ، وترتيب صنوف ، وحركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني فسمعتني أقول « سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا »

سبحانك يا فاطمى يا بارىء يا مصور ولك الحمد ! أنا متذكر الآن أنني

أبصرت هذه المراثي ، وسمعت هذه الامالي أمس لما بزغ الفجر بزوغه
هذا فأين ذهب ابصاري وسمي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا
أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين اتياي الآن وأنا منذ كذا
هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة ألوفامن المرات فما هذا الاحتجاب ثم
الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل ان عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا .. ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب !
لها لا تسمعي ، أوللي لأسمها ، أو لها لا ذكر لها في هذه المسائل ،
وكيف أصبر على جهلي بشيء يتلق بي ، كيف لأبحث عن أصل احساسي
وعن احتجابه ! ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات
ورقها ثم يعود ثم تيبس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا ؟ أم أمره كأمر
هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزول أبدا ؟
كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص
والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض . كلا سأسائل اثم كلا سأسائل !
رفعت رأسي الى السماء فألقيت بواهر ولا عجيب ، وأهويت به الى
الارض فألقيت بواهر ولا عجيب !

فضاء أمامي ، لأعرف له ساحلا وحدًا ، تارة يفيض نورا ، وأخرى
يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محولين فيه ولا أعرف من هذا المثل العظيم
الاسماء وضموها له لا تشرح كنها ولا تؤذن بدلالة كافية
تلاعب فيه النسمات لها ناسية أن الامر جدد ، وما هو بالهزل واللعب ،
وتتناغي فيه الاصوات كأنها تحسب أن في كل موجود دماغا يأخذ بحظ
منها ولعل حسابها خائب !

بيني وبين كل - اهو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفت بها هذا النور البازغ ،
 فهل بزغ هذا النور لا عرفها أم لترعفي ؟ وهل كانت لي أم كنت لها ام كنا
 جميعا لهذا النور أم كان هو لنا ؟ ولكني أعرف يا نورانه لولاك لما عرفت شيئا
 سلام عليك ايها النور ، يا حامل لافعة المعرفة البناء ، وشكرا لمن تسبح
 ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت واكن است ادري كيف عرفت ، قد نقشت
 السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي ، فهذا اليم
 الذي يمج الآن أمام غرفتي اصبح لاشيء عندي على اتساعه لانه محدود
 وهذه الشمس العظيمة التي بدأت بزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في
 عيني لاني احطت بها ، وهذه الارض التي اراها كسرير لي قد تلاشت
 في نظري اذ وجدتها هي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي
 لا ساحل له ، ادركت في هذه الساعة أن هذه الأشياء كلها معا عظم حجمها
 فهي كالصفر بالنسبة الى ما لا يتناهي ، فعلمت ان ليس فيما أحاط به حسي
 ما يدفع عن فكري عطشته

راقتي جمال هذه الكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما
 نحن لها بسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟

تركت حيرتي ههنا والتفت الى هذه الشجيرات التي اراها تزين
 كمراس الانس وسألتها فلم تجب او لم افهم حفيفها ، وانثيت الى هذه
 الياحات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب او لم افهم هديلها ، لكنني
 استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق بخالط منها

الجنان ، ولا حركة لها الا على يد اللسان ، وطال أنسى بهذه الخضر
المترنحات ، والورق المتغنيات ، حتى كدت ألقه حديثها ، وأفسر تبيانها ،
هذه ذكرتني بمعنى الحياة وأعادتنى الى تقسي وهي ضالتي المنشودة وبها
المهدى الى ماأنشده

لم أجد غير تقسي يجيني عن تقسي بعد أن ساح حسي وفكري في
هذه العوالم المحدودة .. أياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثتني
أنى لست الا ذرة صغيرة جداً ساجدة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة
الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد
من ألوف ألوف ألوف الالوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست
كلها مركزاً للحياة لا تأنجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد
وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول
الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه
الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الادراك الفكري وهو قارئ ذرات
قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت اليه ، وهذا المرأى الذي وقفت
عليه ، حيرني من هذه الذرات أن تسم صور السموات والارض وصور
أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم ، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة
التي تصدر عنها انما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال
هذه النتائج اذا اختلف وضع الذرات

رأيت هذا الامر العجيب ولكن لا مستقر للفكر عند هذا المرأى اذ قصاراه

أني عرفت شيئاً صغيراً جداً يسم الأشياء لا تخصي مع أنني انما أبني أن أعرف ما هو ذلك الشيء ، الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً ؟ ما هو ذلك الشيء الذي وجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركاً حساساً يحيط بالسموات والارض وبغيره يفدو هذا الجسم تراباً صامتاً صابراً تحت الاقدام ، ماهي تلك الحالة المخصوصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج الى هذا النظام بعينه أم يستطيع ان يؤلف نظاماً آخر متى تغير نظامه هذا ؟ وان كان تابعا لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصيغة لتزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة الى عمر غيرها على ما يتخلل وجودها من الاحتجابات ؟ محارات بعد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، اذ قد ملأنا رب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتبة ، الظاهر انما هو آثارها : فهذا النور الذي يملأ الفضاء لانلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت ، قصارانا أنا عرفنا سببها في هذا الفضاء ، لا يسند لها عمد ، ولا يمتريها سكون ، وهي مع ذلك سائرة بنظام ، ودائرة بالحكام ، لا تخرج عن مستقراتها ، ولا تحيد عن مجاريها ، ولكن ما هو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سمو شيئاً من ذلك بالجازية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى مانعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فاذا حللناها انتهينا الى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل هي الامهات ثم هي تنتهي الى أم واحدة لانعرف من أمرها شيئاً !
المشاهدة هي أكبر وسائط معارفنا ، ولكن آله هذه المشاهدة عاجزة

عن أن ترىنا الاشياء كما هي، ولو اقتصر الامر عليها لكانت علومنا بهذه الكوائن خطأ من أولها الى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل عظيم - ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحدنا الا كصباح بسيط يشتمل ساعات وينطفيء ساعات، وما هي الا بحجم كرة مما يلعب بها اللاعبون ! على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه وعلى خلاف وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطاً وهو متركب ، وساكناً وهو متحرك ، وصغيراً وهو كبير ، حتى نصل الى ما هو صغير جداً فلا نراه البتة كما دللتنا التجارب بمد أن اهتدينا للآلات الصناعية التي تساعد بواصرنا الطبيعية اياها مساعدة . . بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعاً من الحيوانات كانت خافية على الابصار دهورا دهارب . ولعلنا سنهتدي الى ما رينا أصغر من تلك الصنائر . ونحن في مثل هذه الهدايا العظيمة التي جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما يمنحنا من الظن بأننا مهما استمعنا بالآلات نبقى في مشاهداتنا بعيدين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على ابصارنا وآلاتنا مهما بلغت أياها فما اكرمك يا عيني علي ! أنت أنت كنت سبب ارشادي الى حقيقتي اذ لم تربها لاني عرفت بالتجربة انك مسكينة عاجزة لاترين كل شيء ولا ترين شيئاً مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطرت ان أقيس وجودي على وجود غيري . . لا جرم ان لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدته كما ان وراء النور حقائق مستترة ولا جرم ان حقيقتي هي سبب وجودي كما ان الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها ، وظاهرة عليها كلها هي حقيقة واجب الوجود ، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشككنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده . . هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نمرها منه صدرت ، وله العلم الازلي الابدی لان العلوم التي نهبها من فضله أتت ، وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجبها من لدنه أهديت ، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده ، وعنه صدرت امثلة الكمال في الوجودات الظاهرة . . هي حقيقة الباري المصور الذي برأ حقيقة مثال كامل حي

سميع بصير مريد وجمل حجاب هذا الهيكل البشري أصبحت لا أرتأب في أن الحقيقة العظمى هي التي نهدبنا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه ، ولكن لشدة ظهورها الذي قد يبادل البطون ربما تخفى ، فاذن طلب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى فسبحان الله من عرف ربه فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

عرفت الآن من امر نفسي أو روحى أنها لا يعرف كنهها ولم يزدني جهلي بكنهها الا ايماناً بحقيقتها الجليلة المستقلة عن الجسد لانني لم أعرف من أمر كل جزء من اجزاء الجسد الا مشابته لهذه الجمادات التي أُمّامي وليس فيما أُمّامي شيء يجمع فيه ما يجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما يفعلهم أن انسب هذه الخواص الى المجموع المركب من هذه المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمع عنه كثيراً لتذكره النظام الشمسي وذهابه الى انه إنما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تنم هي به . .

فما نفسنا او روحنا الاجاذية النوع وكهربائية الخصائص والمزايا ، وهي هي مؤلفة الهياكل وناظمتها . لا بدع في ذلك فالكوائن كلها من اصل لا يرى ولم تنفصل عنه ولا يكون الاصل تابعا للفرع ولا ضرورة لتغير الاصل اذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا ضمنية ، والتجربة فيه هادية امينة ، ولا يصعب ايضا على من عرف آيات النفس التي تظهر في بعض الاشخاص لتتلم بها ان لها شؤوننا غريبة جدا فوق المهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحانه الله كم لها من انطلاق منه يظهر معه ان لا حاجة لها بهذه الآلات المضلية والعظمية والمصبية نحن شاهدنا من هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحصون ، والباحثون المحققون شاهدوا ايضا او نقل اليم ثقات كثيرون مجموعهم يدفع عن تقوسهم الرب وما علمناهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق اسبابا جليلة غاية ما صنعوا انهم وضموا البعض هذه الامور اسماء وظن القاصرون ان هذه الاسماء تحل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !

وسمنا سماعا لا يستطيع الرب معه البقاء ان اشخاصا يشفون امراضا معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تحليل هذا الامر الا انه شفاء بالوم فياعجبا ما هو هذا الوم الشافي ولماذا لا يشفى بالوم كل شخص ؟

حالة المنوّم تنويما مغنطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب على شدة غرابة امر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لخرق الحجب الكثيفة ، وقد القيود الحسية ، وعمله الاعمال العظيمة من غير حركة يديها او واسطة ياتها !

هذا حديث نفسي وخلاصة ماظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو
ظهورات فائقة ، واحتجابات عميرة ، هو اقسام كثيرة ، نصينا منه
عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاء عديم ، هو الحى السميع البصير المريد
المستعد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الالكوان
وظهر لي ان خصائص الروح الشوق ، ولو قلت ان الروح هو الخلق
ذوالشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها
وعلى نسبة شوقها تكون رتبته وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم
المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور



كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة » من اعلى الارواح ،
وكان شوقها اذكي شوق واقدسه ، كانت عظمة الشوق الى رؤية فاطرها
ولكن هل الفاطر عز وجل يرى ؟ لعلها حارت زمنا في هذا الامر ، ولعلها
قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ا
ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة ؟
وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصا ، أليس القصد من الرؤية العلم ،
ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص ؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها
الصوري في بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق ، ملكوت
الوجود الاعلى

ولعلها يئست من ان تجد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها
الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى اصبحت

زاهدة في كل رؤية وحل سمع لأنها تريد أن ترى وتسمع الذي إليه طارت شوقاً ولذلك رأينا «محمداً» (صلى الله عليه وسلم) قد حبيت إليه الخلوة والاقتراد ولا سيما إذ شارب الأربعين من سنه وكان لغاز «حراء» الحظ من هذه الروح الحائمة على حبسها وطيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يقوله هذا المنقطع في ذلك النار ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المقصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول إلى حضراتك؟ كيف السبيل إلى مشاهدات تجلياتك؟ إليك أيها المولى من مزيد حي قايي وقمودي، وركوعي وسجودي، ومن مزيد شوقي ذرف دموعي، وفرط ولوعي، رحماك رحماك ياربي! كبد تذيب وعين تسيل، وفكر يتدله، وانت انت مطلوبني وانت انت ذو الكرم والجود !



على هذا المثال كانت حاله، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به باله، وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائده هذه التجوى القدسية وأما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون، وليتهم يتذكرون عن الناس وتدلهمات بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها، ولا يجدون الطمانينة لديها، هذه المحن والتدلهمات أقضى بالمعجب لعمر الحق لو كانوا يفتقرون . وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسمي وراء مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لا مضرة على الغير فيها لا ينكره عقل، ولا رباب الاعمال الروحية إذ ذات لا يستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات

ففى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الاعمال الروحية وهي لذة أربابها واتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف همهم أمام حزن في طريقها كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا العمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته، كانت عظيمة الايمان بالقوة العظمى، والحقيقة الكبرى، فلم تر بأسا بل لم تر الا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم لتقاء سوانح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت الذي لاحد له.. كانت قد عرفت أن هذا الغار في « حراء » الفارغ من كل مشتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلبا قد فرغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية، والشوق الى الحضرات الربانية. فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسأل الله أن يملأه معالي وبركات وقد أجاب الله تعالى كرمه سؤالها وكتب « حراء » في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتعجيد الناس وتحياتهم ومحامد م. وكما قد ترجمت قرائع الشراء عن احترامهم وتكريمتهم لهذا الغار أو لهذا المطلع الذي فاق بدره الدور، قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشير	أطلع ذاك الضياء العظيم
سلام فؤاد ذكور شكور	بقدر الذي قد صحبت عليم

• •

لأنت يتيمة عقد الوطن	قفيك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقى الفؤاد السكن	فذكراك ذكرى عطاء كبير

الفصل السابع عشر

(بين روح وروح)

أو

(بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بعل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أن روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك في « حراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح ما فيه كفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القاريء يشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ولم يشذ عنه الا قليل وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحانيات ،

ومن يؤمنون بها أحيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أن حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكنني اظن أن محادثتنا اياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديده . وان كان ينكر العلاقة بين الروح الذي هو الانسان والأرواح الأخرى فليس لنا ما تتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجم اليها كثيراً وليدقق في حديثها جيداً . وان كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تحديثه بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذاكرته سهل

كان « محمد » صادقا شديدا الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب « الامين » ، قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الآلهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان عيسى الذي كان روحا من الله ، وكما عرفوا صدق نلاميذه وأنصاره الذين حكوا حكاياته وبشوا بشارته

هذا الصادق الامين رجع ذات يوم من « حراء » منتقم اللون ، مرتجف الصدر ، يملوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع الخبت الصابر ، فما وقم نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت أن أمراً عظيماً قد ألم به .

نفق لأول وهلة قلبها ، وساءت بسرعة البرق نفسها : ماذا أصاب حبيبي ؟ ماخطب ذلك القلب الذي لا تمزعه الرجال ، ولا تمزعه الاحوال ؟ ما بال ذلك الصدر المبسوط تننيه الرجفات ، وما بال ذلك الطرف القرير تكاد تبادره العبرات ؟ رباه ! رباه ! ماذا اصاب حبيبي ؟ قل لي أيها الحبيب ما ذا أصابك ؟ حنانيك قل لي ا قل لي ا

— ذروني . ذروني

— لا صبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه علي

— بينا أنا في « حراء » اذ جاءني روح فقال لي اقرأ قلت له « ما أنا بقارىء »

فأخذني وغطني غطة * وقال لي « اقرأ » قلت « ما أنا بقارىء » ثم غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنا بقارىء » . قال لي : « اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم * »

— ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا يريد مني ؟

— سمعته يقول أنا جبريل جئت ابلك رسالة ربك

* *

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب « حراء » بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى ، فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المألوف ، فاذا صادف أحد

(*) ضمنى بشدة وضغط

الافراد شيئاً من هذا القليل لا يقوى طبعه البشري لأول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخطر في باله مع أنها من الامور التي تقع كثيراً فكيف الحال بالامور التي وقوعها نادر الى حد أن بعض الناس لا يصدق بوقوعها

انه ليخيل الينا أن صاحب «حراء» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ»، يخيل الينا أنه قال في نفسه : رباه ما هذا الذي اسمع ؟ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ؟ رباه ماذا يراد بي ؟ انني أعلم أنني في نقطة لاني منام، وانني اسمع كلاماً لا ريب فيه ، وانني أحس بضغوط يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل . رباه ان هذا أمر يدهش فكن اللهم عوني ، وخذيدي ، وثبت فؤادي ، وقوتي على مواجهته اذا عاودني .

نم انه ليخيل الينا أن المفاجأة بذلك الروح هكذا كان يتناجى في نفسه ويتناجى ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب الى خديجة فلما اقبلها قال «دثروني دثروني» واختصر لها الحديث اختصاراً

دثرته «خديجة» وجعل المرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعد ذلك . وقال له «يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر *»

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة وهذا ما أثر ناليه هنا ولكن مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربه فكان هذا الاسم الجليل حرياً أن يكون دواء شافياً من تلك الحيرة وكافياً أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

الروح «جبريل» يقول له أنا من عند ربك ، جئت أبلفك رسالته ،
جئت ألقى عليك وحيًا من عنده ، وفي هذا الوحي الذي جاء به مفتاح
لتلك المغالق التي اشرنا اليها آتفا التي كانت تقف أمامه دائما.. في هذا الوحي
مبدأ ارشاد وتريف له بربه خالق الانسان ، في هذا الوحي اهاية بفكره
لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ، في حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فان الهدى يردفها
لأن العناية الالهية ظهرت أتم ظهور ، والعطاء الرباني سلّم جليا لتلك اليد
التي كانت مرفوعة في « حراء » لتقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات
القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح
الانسانية الحالة في هذه الصور البشرية وذلك بجمل واحد من هذه
الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والملم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يروا التاريخ وقوع مثلها الا لقليلين : منهم النبي
ابراهيم ، والنبي موسى ، والنبي عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح «جبريل» «اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان
من علق • فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق
الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة البارئ المصور ، وعظيم ضعف
هذه الصورة البشرية لولا روح الله الممد لها

يقول له الروح «جبريل» «اقرأ وربك الاكرم • الذي علم بالقلم •
علم الانسان ما لم يعلم » وهذا القول المجيد يصور له من النشأة الروحية
في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية

الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر . نعم بواسطة قصبة نخي بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خصت العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص

وغريب في الامر أن المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب اليراعة بل كان أميا لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم

لا بدع . لا بدع . ان معنى ذلك هو تكريم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنه قادر أن يعلم من لدنه بغير ما عرفوا من الوسائط من شاء ما شاء إذا شاء . وأن يجعل غير القارىء قارئا . ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلامها هذا الاسلوب



ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هذا السر الرباني تماما ؟ نعم كان قلبها القوي خليقا أن لا يفزع أمام هذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من أبوابه

الفصل الثامن عشر

(عظم المنة باتساع المنة)

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها . ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثالها بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري ، يهيب به الى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التي أخذت لأول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فانه دعي من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها المنن ، ويجب بحسب حدودها قلب السنن

إني لعمر الحق لاغرابة في روعة تنقض الظهر ، اذا حدث لمن نوذي هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلا لتنزلات وحيه الأعلى

نم ألمت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح لخديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولكن التأييد حاف به ، والايانس صاف من حوله ، وناهيك أن في منزله

الذي اليه يثوب، روحا شريفا كأن الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره بأديء بدءه هو روح السيدة « خديجة »
 لم تكن هذه السيدة أقوى مُنَّةً من بعلها الكريم ولكن هو واجهته
 روائع الجلال مواجهةً، فأخذته بين حيرة وشوق وخشية عجز عن القيام
 بالوظيفة . وأما هي فسمعت بالامر سماعاً، ووجدت للتفكر فيه مجالاً،
 ولا يناس الرفيق مقالا

ولو بُدِئت امرأة بما بُدِئت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم
 وكان ينقصها ما حلَّها الله به من الفطنة وبعد الادراك وسلامة الفطرة
 وما أعطاها من قوة التمييز في وزن الامور ومعرفة مقاييسها لتراخت
 مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الازلية
 التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الاعلى قد آتت العمل من أوله الى آخره
 ونسقت على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات
 التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لانها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل
 الذي سيأتيه أعظم الامور ويأتي به

تفكرت « خديجة » في هذا الامر وأخذت تسائل نفسها بنفسها
 وللأمل ههنا وجه وللخوف وجه : فالأمل يقول لها ان الامين لصادق
 وان روحه لركية قوية لاسطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه انما
 بَلَّغَهُ باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذا قدير ، وباختصاص من شاء
 بما شاء جدير ، وأي شيء ينم رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا
 البيت بازال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقا لانضاهيه المشارق ،
 (١٧ خديجة)

يفيض النور على القبائل والشعوب ، أنت اللهم على هذا قادر اذا أردت ولا مانع لما أعطيت ، والوجل يقول لها ما هذه الحال التي أخذت حبيب قلبي فراغت ، اني لا أخشى ان يكون أمراً جسمانياً بحتاً كما قد يمرض للأفراد ، اني لا أخاف أن يصبح هدفاً لري الاضداد . ولكن سرعان ما غلب الأمل على الوجل ، والمنة على الضعف ، وشكان ما تبدت لها وجوه الأدلة على أن ما أنى بعلها الكريم هو بريد خير عظيم ، ومقدمة فلاح عيم ، وكانت أدلتها على ذلك عقلية وفقية تقدمت العقلية منها على الثانية

الفصل التاسع عشر

(الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على نفسي » قالت له « كلا والله ما يخزيك الله أبداً . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة »

ان هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة ، هو نتيجة تفكير جميل قد أعطى الثمرة سريعا ، هذا الكلام الوجيز يؤلف استدلالاً عقلياً من أعظم الاستدلالات فانه قد أتى ساذجاً نظيفاً لا غبار عليه من التكلف ، ولا شيء منه بواقف أمام الذهن ، هو قياس باهر النتيجة ، مطوي بمض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظماً ، ومن أجملها وقماً ، بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ، لا

يستغني كثير منها عن تشرح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا . فحينئذ بلوح لها انطواء الافادات الغزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة ، وتعلم من قريب أن الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء

(١)

يخرج من كلام هذه السيدة أن النوع الانساني محل لمظيم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يجب كل ما يؤدي الى تساهي هذا النوع ويخلق الاسباب لذلك ويأخذ بيدها لتتطلب على ما اظهره بحكمته التي لا نطمح من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها ان الله عز وجل مطلع على اعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى وأن الذي يحبه منا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي نعب عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل اعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكافيء الله فاعل الخير بخير الخير ؟ ان هذا لا يكون على حسب تفكرها

(٤)

ونتيجة قياسها أو أقيسناها ان هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حل هذه الامانة على قاعها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

الفصل العشرون

(شرح حكمة السيدة خديجة)

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد لا تبلغ سفن المبارات شيئا من سواحل التعريف به حق التعريف . وانما هي لتستعين النفس على بث حبها له عز وجل وتمجيدها اياه ولبزاد شوق النفوس الى الكمال، وتعبدتها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات، وان حقيقته لم ي فوق المجاز والاستعارات لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه ، وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعري أنى يبلغ الواصفون صفة من كنهه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نقد صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ولذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأن رب العالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علوا كبيرا

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتهم الارواح وكلتهم من عنده فأيّد كلام الله بواسطة الروح مآدرج عليه الناس من الاستعارة فأصبح هذا الامر عاما لا فرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضا لان التناغم

في هذه الاجواب لا يستغنى عنه ولا يمكن الا بالمبارة

الى الله سبحانه يرجع كل شيء فهو أنشأ الانسان على هذا المثال ، وهو علمه ما قد عرفه الى الآن ، وخلاصة ما عرفناه من ظواهر التكوين أن الباري المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان مميذا عليا أظهر الاشياء أمامه مبنية على التضاد ، وجعل تميز الاشياء بأضدادها ، وأودع فيه ضدين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته هما الاستحسان وضده ، وجعل مع الاستحسان الشوق والحب ، ومع ضده النفرة والبغض . واقتضى ناموس التضاد الذي عليه مدار تمييز الانسان أن تتخالف أفراد هذا النوع في الاستحسان وضده فكثرت أسباب تخالفهم فنشأ بينهم الضدان المسمى أحدهما خيرا والآخر شرا . واحتاجوا الى جواذب تجذب الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم الى معرفة هذه الجواذب والدوافع . ومن نمي منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكيما وهل جائز أن يكون بعض افراد الانسان حكيما والباري غير حكيم ؟ كلا ، ثم كلا . بل ليست حكمة الانسان الا من الله ، والله هو العليم الحكيم . نعم ، بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس

للم الله وعمله وارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف الانسان منها شكلا من الاشكال لان الانسان انما يصنع ما يصنع للاحتياج والاستفادة وأما الذي اراد ظهور الاشياء بهذا التنوع فلم يرد هذا الحاجة اوجدوى تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمى ما يصنعه الانسان لالفائدة عبثا ولا نسمي عمل المستغني عن الفائدة عبثا مع أننا لا نرى فائدة في عمله لاله لا استغناؤه وتهديسه ، ولاله مصنوع من معدن ونبات وحيوان وغيرها

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة في كل شيء وتعلم من هذا وضوح عجز المبرة في كشف خدور هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم اذا رجعنا النظر الى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكير والتذكر ذلك أن كل شيء منها يفيد الانسان حكمة اذا نصدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، ان الانسان يرى اذا تأمل نظاماً بديعاً في هذه الظاهرات ويرى له نصيباً في كل شيء منها فمن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آلائه وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات . أماعجبوا الحكمة فيعمقون نظرم ويتلمسون الاسرار في تشكيلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوزاع . ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت اظارهم الى استجلاء فوائدها ثمة أيضاً لأنها كلها من الله ، وما من الله لا يكون عبثاً بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئاً آخر فكان الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل وقدرت اعماله

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها عبر ، وتعليم لمن تذكر . وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم له كل مرء ، وبؤناه كل احد في كتاب يكتب ، او خطاب يخطب ، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعداً أن ينال الحكمة نجد الحكمة ذات بركة شاملة زور بيوت غير الحكماء ايضا فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حاملي لواثها

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهدية العليا الربانية هدية الحكمة ، وقد رأى القارئ آفا شيئا من حكمتها وجبل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا نشرح ذلك الاجمال ، ونزيد المقام حظا من ذلك الاجمال : (١) فهي رأت ان النوع الانساني محل لمظيم تجليات رب الانواع وأنه سبحانه يحب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع . وحق ما رأت فان اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدلج أن الله سبحانه أحب أن يُعرف فاقتضت ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان في ظهوره جسما وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتاً عظيماً قد أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي ، وأضحى بجمع أسرار وكنز حقائق لا يماري فيها الا من جعل النسيان بينهم وبين الملكوت الاعظم حجابا

ومن المشاهد أن البارئ عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقى هذا النوع ويأخذ بيدها لتتطلب على ما أظهره بحكمته التي لا نطمحها

من أضعافها . اتنا قد شامدنا ماجرى ويجري من الدفاع والجدال بين
جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه الى مشارق العلم ، فوجدنا
الغلبة للثانية على الاولى ، وحسبك ان الانسان بعد ان كان كسائر الحيوان
لا يفقه غير حاجته الى عشب يصد به ألم جوعته ، وماء يرد به ألم عطشته ،
أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب ، وبحسب من حرركاتها
هو أقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك ان يعرف متى يكون الخسوف
والكسوف ، ددع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته ، وددع عنك توصله
الى استخدام الروح الساري في هذه الظاهرات الدنيا نغني به الكهرباء
وددع عنك استفادته من الارواح العليا . واتيانه بواسطتها بالانباء
البميدة والمحجوبة

(٧) ورأت السيدة «خديجة» أن الباري عز وجل مطلع على أعمالنا
ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى . . . ومن تذكر ما حررناه
في مقدمة هذا الفصل يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير ممان
من كمال الله تعالى فهو سبحانه محبط بالوجودات كلها وقد جعل لها سننا
من جعلنا أن جمل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض
ومعاونه بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به
الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده ، وما بعد عنها مكروه لديه .
هيهات ! هيهات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكراميته لانه سبحانه
لا ضد له ، ولكن هذا المعجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ما ينفعنا ويكره
ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وانما خلق الضار
والمكروه مما النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أضمن النظر بكل ماساف هنا يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف . ومن برزق هذا الروح لا يكون الا سليم الفطرة ، طيب القلب ، غير متعجج انقص حظ ، ولا متمال بزياده نصيب ، فلا يكون الا محبوا تأتيه المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) علي هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لا يكافئ فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة ، وأهل المال يقولون هذا القول باعتبار ما يلقى المرء في الحياة الثانية التي انما تكون لنيل الجزاء ، وأما في هذه الحياة فنهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول ان فاعل الخير يتلى في هذه الحياة بالشرور

ونحن لا ينبغي ان ننسى أن مذهب هذه السيدة مشوق لفعل الخير لان المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى مما يزيد محبيه حبا فيه . واليه اذهب ، وبه أثق ، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب ممن ظاهروا الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا بعض تفصيل لما جاء بجملا في حكمة السيدة « خديجة » ولم نسوغ الزيادة على هذا المقدار خشية تمب الرقيق القارئ ومنه يعلم رفيقنا أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو الا روح خير وسلام ، وفلاح ونعمة واكرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

الفصل الحادي والعشرون

(الدليل القلي)

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفته طباعهم عظيم الالفة. وربما كان من سنخ غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، اذ رأيناه عريقا في مرافقة الاجيال ، والتنقل في الالسال ، وموغلا في الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يرحزهم شيء عنه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء تقع البشر كثيرا ، واضرّ بهم كثيرا ، فاما نعمة ايام فلان الاكبر سنا ، والاكثر فهما ، والاشد قوة ، والاغزر تجربة ، يجمعون المقتدين بهم يتدثون حيث انتهوا هم ، ويمهدون لهم ما لا يستطيعون أن يمهّدوا لانفسهم ، ولو بقي الطفل والنبي والضعيف والفرخاين من طبيعة الاقتداء لراحت اكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى ، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات ، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقي التمدن ، ولا نمي العمران ، ولا سما النظام . وأما اضاراه بهم فلانه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور ، وجعلهم يحرمون مما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ما عرفوا من قبل ، وان اصبحت ما عرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نعمة واضاراه ، ووضع الموازين للدرجات فيه ، لا قرابة

بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذا الناس بعض كلام الآخرين من جملة الادلة هو الذي حملنا أن تقدم هذه الكلمات في وصف عراقتة وبيان أن بعضه نافع كما وقع للسيدة « خديجة » * * *

كان للسيدة « خديجة » ابن عم قد شبع من الاعوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ورضي بدين ابن مريم (عليه السلام) ديناً وهو « ورقة بن نوفل » .

هذا الشيخ الجليل كان جديراً أن يكون اماماً لخديجة تتخذ قوله حجة وهدية مقتصاً لان هناك وجوها كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور وانه لا يصدر عنه الا النصيح لها . فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ايها ، فلو أن ورقة غشاش مخادع لما كان منه الفش والخداع لبذت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدین ذلك الانسان المملوء قدساً الذي كان اكبرهم حث الناس على التعاطب وفتح بعضهم لبعض ، ونهيمهم عن التشاحن وايداء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسمو التعاليم التي تركت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي المهمة جداً ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر الى علمه وأخذت معها بطلها ليقص هو نفسه على سمعه مارأى

كان ورقة بحسب ماقرأ وعرف مصداقاً بأن ليس هذا الهيكل البشري الا مظهراً لشيء يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح ظهورات غريبة في بعض الهياكل ، وانه توجد ارواح من شأنها الاجتنان عن الحس والبيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ، صنف منها يحب جذبه الى سبل التكميل ، وصنف منها يجب بقاءه في

حضيض البهيمية ، يقال في العربية الاول ملائكة ولثاني شياطين
كان مصداقاً بكل هذا ومؤمناً أيضاً بأن بعض الارواح الذين هم
الملائكة يخضعون للماطر المصورين بخصائص ومجملهم واميس أي وسطاء
الوحي الأعلى للذين يريد سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جداً
كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح اليهم وعرف أنه يقوم
أنبياء كذبة وأنبياء صادقون وأن هؤلاء هؤلاء علامات. فنحن لما سمعنا
ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهل تصديقه
بقضية الروح الذي أتى محمداً (صلى الله عليه وسلم) لان يوحنا الرسولي
يقول في رسالته الاولى «أيها الاحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا
الارواح هل هي من الله لان أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم.
بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في
الجسد فهو من الله، وكل روح لا يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد
فليس من الله» ولكن الذي خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأينا أمراً
واقفاً فان ورقة بعد أن سألت بل ابنة عمه بضع مسائل قال له هذا هو
ناموس موسى أي الروح الذي جاءه . والظاهر أنه لم يقل هذا القول ولم
يصدق هذا التصديق الا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي
وظهرت له انه لائم الدالة على أن هذا الروح من الله على حسب ما علم من الكتب
نحن لانديعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة
الامتحان التي أشار بها . ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك المهد
بالنسبة الى زماننا هذا كان لا يجهل هذا التفسير . وكذلك لانديعي العلم
بتفسير قول موسى لبني اسرائيل «ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب الهكم من

أخوتكم» ولا تفسير الاصحاح الثاني والاربعين من «اشعيا» ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعيا أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلم ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية. وهذا نص مافي أشعيا :

« ١ هوذا عبدي الذي أعضده ، مختاري الذي سرت به نفسي ، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصبح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفىء ، الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته • هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الارض وتائجها ، معطي الشعب عليها نسمة ، والسالكين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك ، فأحفظك وأجملك عهداً للشعب ونوراً للامم ٧ لتفتح عيون العمي ، لتخرج من الحبس المأسورين ، من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي ، لأعطيه لآخر ، ولا تسبيحي للمنحورات ٩ هوذا الاوليات قد أنت ، والحديثات أنا مخبرها ، قبل ان تنبت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب اغنية جديدة ، تسبيحة من اقصى الارض ، أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قديرا ، لترنم سكانها من رؤوس الجبال ليتهنوا ١٢ ليمطوا للرب مجددا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر »



قد قلت وأعيد قولني انني لأدعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت آتفا من قول موسى واشعيا ما يشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى واشعيا ما فهمت لا يجديني آسنا على عدم إصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بنير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذني حجاج ومناظرة أنا هنا الا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبالغ ما وصلت اليه . من القول وهما مسألة جليلة لانستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القارئ وهي ان الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو واسطة غيرها هذا المعنى كان بنو اسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبشهم بما سيكون . وتبتدي هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبئ فأنبأ بانه سيكون طوفان ويعوت كل من على وجه الارض وهدى الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجاهو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم تفرقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم* وكان ينزل عليه روحا من عنده ، وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبات منه أخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يمد من الكثرة فولدت له اسماعيل ثم أنبئ أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

(*) ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن دعو بن فالج بن طابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح (كذا في التكوين)

وطول هذا المقم فولدت له اسحاق واني ان نسل اسحاق سيكون كثيرا أيضا . وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها فزل على هاجر الروح وقال لها لا تخافي لان الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية بركة فاران التي قال عنها موسى ان الله سبحانه تالاً فيها

وتأخذ كنب بني اسرائيل بعد ذلك بسر د أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يحى اليه

ويوسف هو سبب محي بيت يعقوب الى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشريعة . هذا أيضا كان نبياً وينزل عليه الروح وهذا قال لقومه « ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم » واسس موسى لبني اسرائيل ملكا على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم اتسليم داود وسليمان وتماظم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطوارئ حتى زال . ولم يحل زمان من أزمان ملوكهم وبعدها من نبي أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيرا على مريم أم عيسى وبشرها بأنه يكون لها ولد من غير أن يمسها بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبيا أيضا ولكن قومه كذبوه ولم يصدقوه الا قليل . وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا ينذرونهم بزوال الملك اذا ظلوا على الفساد

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم مصدقون بمثلا ،
أو يصدقون بأشياء هم مكذبون بمثلا . هذا أمر وقع كثيرا ووقع دائما أمام
أعيننا واسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص ، وما هو
الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل في التصديق
والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبمعجائب صنع الله ، وفذت
بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله اعبده موسى لا ينبغي
له أن ينكر قدرة الله في اخراج عيسى من مريم بغير واسطة بل ، ولا
يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن
آمن بمعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق ونزول روح الله عليهما لا ينبغي
له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من المعجائب والفرائد الموسوية
والعيسوية وأما الذين لا يصدقون بهذي وتلك ولا يحكمون الا الحس
والعقل فهو لاء أمضي بهم الى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أنا لا نعدم في
خزائنها كثيرا مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها
فإن قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس
هذا سبب اخبار من روح كما تقولون قلت لهم اذا توافقنا في ثبوت الاصل
فلاضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسماؤها

وان قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد زاعم في أزمنتنا هذه من
هذا القبيل وبين من تحدثونا عنهم قلت لهم ان هذا الفرق ظاهر لان
الاختصاص كله من الله فهو يعطي انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية

ويجمله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ويعطي
انسانا آخر مثالا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجمله شارعا وقائد
أمم ومؤيدا بتأييد عظيم فالاول يقول أنا نبي أو أنا رسول وبظهر الله صدقه
فيما يقول والثاني لا يستطيع أن يقول هذا وإن قاله لا يظهر قوله حقا . فهل
ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يمدوها الا خلاص الى الله والادب
مع مجالي أمره ، ومظاهر سره ٢١

لقد كان ورقة على ما ظهر لنا شديد الاخلاص متوغلا في علم الروح
ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها ، وكان على نور فراسة من ربه وسرعة
استطلاع فلما سمع هذا النبأ الجديد تفرس بصاحبه وتذكر ما نقل عن
الانبياء واصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بني اسحاق
« سيقم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فقال له
هذا هو الناموس الذي نزل على موسى

ثم تذكر ابداء الناس للانبياء مع قول اشعيا « لترفع البرية صوته ،
الديار التي سكنها قيثار » وقيدار هو ابن اسمعيل ، وقوله « لتترنم سكان
سالم » وسالم او سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال العربية
فلاح له أن قريشا ستضطرب هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له
« ليتني فيها جذعا - اي شابا - اذ يخرجك قومك »

وبعد برهة قليلة توفي ورقة . أما « خديجة » فاستمسكت بكلام هذا
الرجل أيما استمسك وأضافت علومه الى ما قد عرفته هي بدلالة عقلها
وتجربتها فأصبح ايمانها بنبوة بطلها ورسالة الى الناس اثبت من الرواسي

الفصل الثاني والعشرون

(الايمان والآيات وخوارق العادات)

قال بعض الناس في تلك الأيام لا عجب اذا آمنت « خديجة » ببعثها فان رابطة الزوجية تستدعي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يمرض مزاجهم اذ طفق بعض من سمع هذا النبأ يؤمن به ولم يبق المصدق به « خديجة » وحدها فاضطروا أن يخترعوا أسبابا أخرى للإيمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوعه ، ارتجت له مكة وما حولها ، انقسمت الافكار ، تباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة اذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمداً طول هذه السنين فما عرفنا الكذب صاحباً له ، ولا عرفناه صاحباً للخداع ، وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئاً . أتانا يخبرنا بأمر يشبه ما نسمعه عن أمر موسى . نجيده في اسرائيل ولم يكن أمر موسى الا نافعاً لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يهدي الينا تقماً بواسطة هذا الرجل الصادق الامين مناه »

قالوا :

« يقول صاحبنا ان روحاً أتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شيء من

هذا يبيد من العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية
الابدية وقفة المعارف أن هذا بحر لا حد له . ويقول انه أمر بتبليغ الناس
هذا الوحي وما سيتلوه»

قالوا:

« ان هذه الدعوى عظيمة فان كان مادعاء حقا كان من العار العظيم
والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عز وجل الذي اهدى الينا العقل من
قبل وهو يميز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها وربما
كانت من نوع أعلى وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بمدآن يذيقه
العقل طعم الرشد والمعرفة وبأتيه بروائح ما يهب الناطر جل وعلا من
صنوف المعارف . وان كان مادعاء غير حق فان حبله سيكون قصيرا لان
لدينا حقولا ولا يضرنا حينئذ ظهور أمره .

وقال نفر:

« لماذا يدعي الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة ، هل
فقد عقله ؟ كلا فاننا لانزال نرى صحته واعتداله على أعمامه هل تغيرت أخلاقه ؟
كلا فان من الاخلاق ما يرسخ مع كثرة الاعوام وقل ان يبيض الصادق
مائتا . كلا بل الامر جدد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصر آمن
قوة ساقته بعد أن عاش أربعين سنة - الى الاتيان بهذا الامر للغريب
الصعب عليه ، وان الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعي
من لدنه ، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التي نزلت الينا فضلا
من ربنا ورحمة ، انا به مؤمنون ا »

كان في مقدمة هذا نفر أبو بكر ذلك الرجل الذي لم يعرف الى ذلك الوقت بعيب عند قومه وليت شعري لماذا تجول الظنون وتحوم في تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذي رسمنا صورته من تفكراتهم هو المطابق لحكمة الممتدلين

القاتل ان «خديجة» انما آمنت ببعلمها لانه بعلمها هو في سعة من ظنه هذا اذا شاء . ولكن بما مهدأله من المثل بايمان أبي بكر تعني أن يكون اتنع بمعرفة أن طريقة ايمان «خديجة» كانت أعلى مما يظن

ان الذي آمن به أبو بكر ثم ماث ثم ألوف غيره لا يجوز للعاقل المنصف ان يحرم زوجته العاقلة من شرف الطريقة التي آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات

ان ظنون الناس تكون على حسب أخلاقهم وطبائعهم وتصوراتهم فالذين يصرون على ادعاء أن السيدة «خديجة» لم تؤمن بهذا الروح الجديد الا لان صاحبه هو بعلمها إما جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على شيء يستعيز العاقل بالله من قهاهته وهو القسم الرديء منها، وإمام مجبولون على العناد، وإمام مستعظمون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات نحن لانسوغ لاتقننا أن نعيب أحدا ممن كان حظهم قليلا من علم اخلاق الناس ولا ندعي أنا نستطيع بالكلمات القليلة التي نقولها الآن بمساعدة واذن من الصدد أن نودع في أفكارهم علما جديدا واسما ولكننا نستطيع أن نذكرهم بان أخلاق الافراد ليست على شاكاة واحدة بل منها ماهو في أسفل السفلى ومنها ماهو في أعلى العلى ، ومن الناس من يطلب عليهم من الصدق والاخلاص ما يملك قلوبهم ويحملها بعيدة عن التصنع

والرياء ، وعن الارتياب بالامور التي ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازليات اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كل ما فيه تجيد اسم الفاطر جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نقول لهم ان سيدتنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل كما تشهد سيرتها . ومتى تزحزح هؤلاء عن مركزهم في علم الاخلاق سهل عليهم أن يشتركوامنا في معرفة أنه ليس محكوما على «خديجة» بالحرمان من الايمان الصحيح المبني على أسباب صحيحة لا على كونه بطلها

وأما المحبولون على العناد ، والنروور والاعجاب ، فلا تتعجب بسماع أقوالنا اذ ربما أتت ثقيلة عليهم ، ولا تتعب انفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتي علينا ثقيلة . فلم دينهم فيما توقعهم فيه جبنهم ولي ديني فيما بمشي معه قلبي وبقيت لي كلمة مع الذي يستعظم تصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . إن هذا معذور في نظري والتفاهم بيني وبينه سهل لاني لا أطلب ان يترك ما بيده من النظريات بل أمشي معه في الحديث وهي في يده فنباغ معه غاية حسنة تصالح ان تكون ملتقى لنا معها تشعبت حولها آراء اخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك يا صاحبي ان الذي يطالبه غيره بالتصديق له أن يطالب هو بالأدلة والآيات ، ولكن اذا سمعت بمصدق ولم تسمع قصة طلبه للدليل والآية فلا تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من قرب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين

أنت تعرف أن أبا بكر وامثاله ممن صدقوا محمدا (صلى الله عليه وسلم)

لم يكن لهم آباء سبقوهم في تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ،
وتعرف انهم كان لهم حلوم راقية رائقة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظن
انهم صدقوه بنير آيات ينات ، وأدلة ساطعات ؟

المشارب في الاستدلال مختلفة وأخشى ان يكون مشربك فيه
كمشرب الدين لا يمدون الآية الا الامر الخارق للمادة ولذا رأيت أن
لا أودع هذا المقام من غير أن أحادثك بالآيات والخوارق بمد ان
اسلفت طريقة « خديجة » على النحويين لتعلم كيف يمكن أن يكون ايمان
كل مؤمن بمحمد (عليه الصلاة والسلام)

اذا وقع شيء خارق للمادة لا يستطيع احد حينئذ ان ينكر انه آية عظمى ولكن
ماهي المادة وهل يمكن أن تحرق (أي تخالف) وهل وقع شيء من هذا ؟
يمنون بالمادة عادة الاشياء وطبيعتها ويمبر بعضهم عنها بسنة الله تعالى
في الكوائن . والذين بحثوا في امكان خرق المادة لم يفرقوا بين شيء وشيء
بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم .
والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا في الامثلة التي أوردوها من
صور هذه الخوارق الا شيئا يسيرا جدا لا يصلح ان يلتفت اليه خصومهم
فضلا عن أن تكون به قناعتهم

ان لله عز وجل سنا في كل موجود ، أو نقول ان لكل موجود
عادة وطبيعة ، والشمس مثلاً من جملة الموجودات فهل يقول الذين يتصمون
بالخوارق يمكن أن تعير هذه الشمس برغوثا وتبقى هذه الارض على
حالتها ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بنير نور ويحيون هذه
الحياة عنها متمتعين بمحادثتي وفواكه ، ولحوم وشعوم ، ومياه جارية ، وأزهار

زاهية، وصيف وشتاء وربيع وخريف ... الى آخره ... الى آخره ٢٢
أنا لأعرف ماذا يقولون ولكنني مع ايمانهم أو أكثر بمظلم
قدرة الله تعالى يجدوني اذا قالوا في هذه المسألة « نعم » مفارقا لهم وقائلا
اذا تغيرت سنة الله سبحانه في الشمس فصارت هي برغوثا تغير سنته
في أيضا فأصير أنا غير انسان وغير باحث عن الخوارق

الذي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع
الملل لا يقف أمام نقضة من روح الله الحكيم اذا اراد عز وجل اعلان
الغيرة على حكمته وسنته، ويفهم أيضا أن الدين الذي هو من أكبر هدايا
العناية الازلية لا يتوقف عليها اذ لو توقف عايبا وكان لا بد في ظهور صدق
المأمور بتبليغه من ظهور خارقة لما تيسر تصديق أحد لان كل واحد حينئذ
يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله، وناظم الكون سبحانه لم يشأ
الى الآن نثره على ما بهواه المقترحون

الاقتراحات لاحد لها ولا عد ولا نظام، هذا يقترح مثلا ان تصير
للشمس برغوثا، وآخر يقترح ان يصير المشتري عصفورا، وآخر يقترح
ان يكون المرنج (طرطورا) وآخر يقترح ان يصير القمر قريبا، وآخر
يقترح أن يكون عطارد عطارا، وآخر يقترح ان تكون الزهرة زهرة
لا تذبل أبدا، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية،
وآخر يقترح ان يصير البحر كله برآ أو البر كله بحر أو الناس كلهم سمكات
مؤمنات مصليات صائمات، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهباً،
وتثبت عليه اشجار التفاح والليمون والاعناب والزيتون، وآخر يقترح
ان يصير الوقت كله ليلا وتجبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك،

وأخر يقترح ان يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة ... الى آخره ... الى آخره ...

انم ان مبدع منظومات الكون لم يشأ الى الآن نثرها ولا نستطيع ان نقول انه ينثرها على حسب الاقتراحات لتأييد الرسل فامعنى مباحثاتنا معشر البشر بانه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بمدايما بنا بعدم تحديد قدرته وبعدم سماعنا وحيه برشدنا بهذا الكلام العالي « فان نجد لسنة الله تبديلا وان نجد لسنة الله تحويلا » بعد تقرير هذا اقول ان البشر لا يستطيعون أن يعرفوا كل سنن الله تعالى او كل عادات الاشياء وطبائعها بل لا يستطيعون ان يعرفوا جميع اسرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ، ثم هم لا يعرفون ايضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمد به بصنوف الهدايات ، وأنه قد يشاء اعلان آية له لاظهار عنايته به فيريه شيئا مثلا على خلاف ما تعلمه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على تخلف المعروف من عاداتها اثر المنظومات ومن امثلة ذلك ان النار شأها الاحراق وقد تقتضي سنته تعالى لاعلاء معارف الانسان وهدايته ان يريه النار غير محرقة لسبب تتماق القدرة باخفائه ان مثل هذا يقع ونعمه من جملة سنن الله تعالى لان من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة ، وبديع الصنعة ، واحتجاب الحكمة ، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقارئ أنا مؤيدون للآيات لا منكرون لها . وقصارى ما نقول إن الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المفترحون ، ويظن الظانون ، ويخترع المخترعون ، وانما يؤيده الله تعالى بآيات تنشرح لها البهار المستعدة ، ولا نقول ان هذه الآيات فيها

تحويل لسنة الله تعالى او عادة الاشياء وطبائنها اذ لا تبديل لسنة سبحانه
وانما فيها معونة ربانية نعرفها بآثارها

وربما كرهنا التعبير بالخوارق الذي اصطلح عليه المدونون وان كانت
المناقشة على الانفاظ بغیضة الينا وبميدة عن رأينا . ونحب التعبير بالآيات
(كما عبر القرآن الحكيم) وبالله ما اكثر الآيات على أن مآثي به هذا
المختار هو فضل رباني وأمر روحاني

اقد أنبته الله نبانا حسنا ، وشمله بالعناية منذ كان في الصبا ثم الشباب
وهو غير شائن ذلك الالهاب حتى دخل الكهولة وتاق الى التكمل وفي
هذه السن بدأه بتجيب العزلة وتفرغ الفكر من الصور القواني لبشرق
فيه الجلال الذي لا يفنى ثم أعلن لروحه روحا من لدنه كما منح هذا من قبله
رجالا كثيرين من المصطفين كإبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف
وموسى وعيسى ومن الآيات ان هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجد
طلب منا أن نعبده من دون الله وانما قال لنا انا عبد الله جئتكم ببلاغ من
عنده انه وحده له الحكم ، وانه وحده اليه المرجع والمآب ، ولو قال لنا
اإلهكم لوجدنا مقتربين عليه ان يجعلنا خالدين ، اذن لوجدناه عاجزا

الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لا نستطيع عدها :
جاءنا بالعلوم وهو امي ، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد ، ورفع الله له
من الذكر ما لم يرفع لمثله وجعل هديه باقيا ، وصوته عاليا ، وروح تأييده
ساريا ، ولهذا ليس اليوم بنام تعجب حين نسمع ايمان اقرب الناس منه واعرفهم
به بل نحن بخديجة وابي بكر مقتدون ، ولربنا على هذه العناية والآيات

شاكرون ، وبوحي الله لهذا المصطفى مؤمنون
(٢٠ خديجة)

الفصل الثالث والعشرون

﴿ اعلان الدعوة ، واحتمال الاذى ، والثبات ﴾

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عند ما ذكرناه الى الآن من سيرتها بل هي كالينابيع الثرور لا تفيض . والآن يشرف القارئ معنا على مجلى من اعظم المجالى لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لا نجده في كل عصر الا في صحائف أفراد ندرتهم بين بني آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجارة ، وكثرة فوائدهم أعظم من قطرات النيث

لقد مر على بني آدم ألوف من الاعوام وفي كل عصر وجد منهم ألوف الالوف ومن كل هذا المدد العظيم لا نعرف مثله ثبتن في سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة » أما ثبات بطها الكريم فلا ينبغي أن نقيس به بعد ما قدمناه ثبات أحد فانا قد وصلنا في الفصول السابقة الى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحي الإلهي أسرا اياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظيما جدا منذ أناه هذا الوحي . وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الاعظم ، والمصطفى الاكبر، فلذلك لا نرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرا ثم أمر أن يجهر بالامر فلم

يجد الى جانبه زوجة تبسط وتخوف أو يهضم قلبها فتؤثر الراحة وطمأنينة البيت على النصب واحتمال الاذى بل وجد قرينة صالحة القلب للوقوف معه بالصبر والسكينة أمام المعارضين والمعارضات وما أشد ما كان أمام هذا الداعي الى غير ما عرف القوم وما أحوج هذه الحالة الى قلوب كلما كبر الماندون كيدا تقول « الله اكبر » ١٢

الله اكبر ، كان الماندون افرادا وجماعات قد امتلكت الانفة والعزة تقوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من أفئدتهم الندادة فأصبحت نسجات الهدى تزعجها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها ،

قريش وما قريش ١٢ قبيلة ترى لنفسها سبق بكل فضيلة والشرف على كل فصيلة ، لها انوف شاذة كأنها تطاول السماء ، وأعناق متاعة كأنها تصيد كل علياء ، تمادى كل قوم بالنجباء فتكثروا ، وتقاخر من تشاء بالعظماء فتفخرهم ، مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعيرا

هذه القبيلة التي حالها ما وصفنا من قوة الشكيمة وشدة الابهاء ومزيد الثمالي كانت قد أصيبت من الاقتداء بمضرته اذ كانت بعض المقائد التي صادفتها في موردها ومصدرها في البلاد المجاورة قد التصقت بمقولها حتى أصبحت ترى التصدي لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها ، وانها كالحرمانها هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء ما يبهز الناظرين ولكن قد تراكت على افكارها سحائب من آثار التقليد حالت بين ذكائها وبين الحقائق المالية حتى رأيناها تدرج مع البلداء في مدرج واحد من تأليه صور صماء عمية بكماء جامدة قد صنعتها الأيدي فقامت تحسب أن هذه الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق الأعظم وتنفع ،

وراحت تملن أن لهذه الصور مجدا ، وتستحق شكرا وحدا ، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لآلهتها من ذبح القرابين ، ونذر النذور ، وتوجه القلوب ، وإخبات الصدور ، وتعلق القلوب

نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى صارت الانفس فيها لا تنبسط لشيء انبساطها لتمجيد تلك الآلهة ولا تنقبض لشيء انقباضها للطعن فيها أو النقص من تكريمها

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذرا وداعيا الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وكانت قريش تعرف هذا الاسم الجليل الدال في هذه اللغة على واجب الوجود موجد السموات والارض ولكن لم تكن تعرف ما ينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث ، وقد جررها الجهل بالله تعالى وسفنه وآياته الى ماجر كثيرا من الامم اليه من جهل كثير من الحقائق . واني ما أشبه نتائج الجهل به هز وجل الابسلة طويلة يستدرج بها ذلك الجاهل الى أسوأ النهايات اذا لم تتداركه الاسباب من غناية الرؤوف الرحيم جلت آلاؤه ، وتعالت أسماؤه

ولقد كاد حظ قريش من هذه السلسلة - سلسلة الجهل - يصل بها الى مستقر لاتغنيها فيه الرفعة على أمثالها من ضرب الجهل خيامه عند خيامهم ، ولا تجديها القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك . كاد الاتكال على الاصنام يعني كل اثار الفطرة منها ، ويطمس كل رسوم الذكاء ، ويذهب بما ركه فيها من المحاسن ببعض فضلاء الاسلاف قبل هدم هذه الآلهة التي فتنوا بها . أصبحت لاتني ماهو فضل الله ، وماهي

رحمة الله ، وما هي عناية الله ، وغدت بميدة عن معرفة ما هو الروح ، وما هي خصائص الروح ، وما هي عبادة الروح للأحد المحيط بكل شيء ، وراحت معرضة عن العلم برأقي الامم واتساع دائرتها ، وعن معرفة وظيفتها من تعميم ارادة الفاطر باظهار البدائع على يدها ، وظهور آلائه وآثار عنايته عليها ، وأصبح قصارى ما يجول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيئين يشيلان في ميزان العقلاء : شيء يرضي به وهمه في التزلف الى تلك الحجارة التي اتخذها آلهة ، وشيء يرضي به وهمه في الكبرياء ، ولم يدر مغرورهم أن التزلف الى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلي ، وأن تلك الكبرياء ، لا تجديهم شيئاً اذا دهمهم دام خارجيهم كما وقع لهم يوم «أبرهة» هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته أصبحت قيداً لمداركهم قد أحكمت حلقاته فهم لا يستطيعون مادام موجوداً أن يروحوا مام فيه لأن جاذباً منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحرروا هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية البارئ أن تظهر آية عظيمة في قدها وتخليص تلك الفطر من قيدها ، واقتضت الحكمة البالغة والتدبير الاسمي أن يكون ذلك بواسطة من انفسهم ، وأن تجري الهداية على سننها في الاولين فيلاقي الوسطة ما يلاقي ، ويعبر ما يعبر ، ويتم الله ما يريد . ولذلك لما قام هذا المصطفى يطن هذه الدعوة : لقي تلك الصوامد وماتلك الصوامد ؟ جهل وغرور ، وكبرياء وعتو ، وقسوة وفضاظة ، وتمصّب للمألوف ، ونفرة من الوعظ والنصح ، وابهاء أمام الانذار ، وطنيان وبهتان وعدوان ، واقدام على قتل القدي يذكر آلهتهم بما يكرهون أي قلب لولا التأييد الرباني يجد الى الصبر سبيلاً أمام هذه الصوامد ،

وأي ناصية لولا العون الرحماني تظهر للقراء هذه الصوامد ، وأي امرأة غير « خديجة » ترى بملها في جوف هذه النوائيل ثم لا تزيد الاحمد أعلى القيام بوظيفته وايناسا بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود أوفى (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الأذى للأسمهم الدعوة ، تكاثر المفتاتون عليه والمفترون ، وظاهر سوادهم الجاحدون والمعترون ، من اقرب اقربائه ظهر الجافون المتباعدون عنه ، والمهازئون به والساخرون منه ، دع عنك البعداء ، ومن اكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون هو يطلب الملك علينا ، وقالوا عن الوحي الآلهي هو شر جاء به الينا ، وقد حشروا ما عرفوه من العبوب وأرادوا عزوها اليه لينفروا الناس منه وينتقموا آلهمتهم التي بدهم بمجودها ، وكشف لهم عوار مجودها ، وأيسر ما فعلوه سبهم اياه والمزء به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافة من لم يجافه فعلوا كل هذا وهو متدرع بالصبر ، منابر على الصدع بالامر ، وفي هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون الصبر من أجله ، وتهدي الى الاجيال الآتية اجل صورة لثبات الجأش أمام الصعوبات

وباما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كماقبة صبر هذا الرسول الكريم فقد كانت العقبى ذلك الفوز العظيم الذي يقل في الدنيا من لم يسمع خبره ولنم عقبى الصابرين

— خلاصة الدعوة —

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها فهذه أصولها :

(١) العلم بأن لاشيء يستحق التأليه الا الله الخلاق العظيم الذي

لا يشبه الحوادث ولا يشبه شيء منها

(٢) العلم بأن هذا الباري المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانساني ومن عنيته به اتحافه بصنوف الهدايا ومنها الهداية بواسطة وحي أعلى للرسول المصطفين

(٣) العلم بأن هذا الداعي الجديد الى الله هو رسول مصطفي قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء
(٤) العلم بأن الايمان بهذا الرسول يقتضي الاذعان والتسليم الى كل ما جاء به هذه أصول الدعوة التي كان مأمورا أن يبدأ بها الناس وهي ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين «لا إله الا الله محمد رسول الله» فمن قالهما مطمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء الحمدود لواء الحمدبة الذي يظل مئات الملايين في يومنا هذا

والرسالة الحمدبة لم تكن لقريش ولا للعرب خاصة بل هي للناس كافة ولكن البدء بالمشيرة الاقربين كان هو الذي تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عوناً للدعوة لا عونا عليها

الفصل الرابع والعشرون

﴿ بعد عشر سنين ﴾

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ العناد من الخصوم يزيد، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالا ولم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسبان

كان الجاحدون في نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون في جنة من الفرح بنعمة الله ورحمته ، كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجديد ، والمؤمنون ينتظرون من مولا لهم اعلاء شأنه ، كان الجاحدون حيارى في هذا الداعي فطورا يسبون وطورا يهزأون به ، وأحيانا يرجمون الى أنفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه فيجدونه ميذا عن المين وسائر المظان التي كانوا يظنون ، وكان المؤمنون من يقيهم في حفظ عظيم من الطمأنينة وانسراح الصدر وفرح الضمير . كان الجاحدون يرجمون الى تلك الحجارة فيشكون اليها الحمدبين وما أتوه من مخالفة قومهم ونأي ذلك الرجل الذي لا يذكر آلتهم الا بسوء ، وكان المؤمنون يرجمون الى من لا تدركه الابصار متوجهة اليه وجوههم ، مسلمة اليه قلوبهم لا يتوكلون الا عليه ولا يأخذون الا بسنته . كان الجاحدون عكوفاً حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون يقولون سبحان الله سبحان الله عما يصفون ، تمالى الله علوا كبيرا . كان الجاحدون كثيرى النعم والهم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لا قوه من الاذى فرحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الهبر حلاوة ، وذلة القلة عزة ، وفي أواخر تلك السنين العشر الشداد كان على سرير الاحتضار شخص عزيز جدا عند المؤمنين ولم يشمت الجاحدين في تلك الايام شي . مثل مناداة هذا الشخص لتلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم كان في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط الصغير ، تارة ترفع البصر الى مقرها الاقدس عند المحيط الاعظم فتحاول الطيران اليه ، وتارة تلقي به على هذا المحيط الذي أنست به فظل مرفرفة عليه ، وجانحة

الى المكوف لديه ، وكان جاذب من قلوب هذا العالم الاسلامي . يتخى بقاءه ،
وجاذب من امر الله وسنته يقضي بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير
هل عرف القارئ من هذا المودع العزيز ؟ ذلك كان شبح سيدتنا
« خديجة » فقف أيها القلم خاشعا ، لقد ماتت . من تركت للفضائل حياة
لا تقنى ، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامية ، ولن
نجد لك أيها القلم شرفا بعد هذه السيرة الا اذا سرت بنقل التاريخ المحمدي



سبحان رب الكون هذا حكمه في الروح قد سيمت بهذا الواقع
مرآتها هذا الشخوص بها ترى زمنا وترجع للمحيط الواسع
لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها ما نقلناه
للقارئ والآن هي لدى المحيط الواسع فهل تجلبي اليوم على هذا العالم الذي
مرت به وترى أن تلك الكلمة التي قاست في سبيلها مع بلها الكريم
ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب
وأصبحت برور الارض وبحورها مملوءة كل هذه المصور الى يومنا هذا
بمن يقول من جميع اجناس البشر « لا اله الا الله محمد رسول الله »

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات
وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة في أكثر
أقاليم الارض والحمد لله ولكن هل تجلبي اليوم تلك الروح الشريفة وترى
أن كل المؤمنين يمدون اليوم أولادها ؟ . فالسلام عليك يا أم المؤمنين ،
سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة بأمانه

﴿ فهرس سيرة السيدة خديجة ﴾

صفحة	صفحة
٣٩ حرية أهل مكة ،	٤ - (مقدمة تمهيدية او اهداء السيرة)
٤٠ البيع والرق وحقوق النساء في مكة	٩ - (المقدمة) ١٠ العرب - أصولهم
٤١ - (الفصل الرابع - مقام النساء في قوم خديجة) ٤٢ وأد البنات - اسبابه ،	وانسابهم ١٢ العرب البائدة ،
٤٥ مشاركة نساء العرب للرجال في الامور العامة ، ٤٦ النساء اللاتي شايئن عليا (رض) ، ٤٧ خبر سودة الهمدانية مع معاوية ، ٤٨ خبر بكاراة الهلالية والزرقاء الهمدانية مع معاوية ،	١٣ العرب ولد اسماعيل ،
٤٩ دامية الحجونية د د	١٤ العرب - اختلاطهم بالام ،
٥٠ - (الفصل الخامس - مقام خديجة عند قومها) ٥١ النساء - ارتفاع شأنهن عند العرب ، ٥٢ المألوف وغير المألوف	١٥ العرب - تاريخهم وعلم النسب
٥٣ - (الفصل السادس - فضائل خديجة والفضائل عند قومها) ٥٤ المعروف والمنكر ميزانا لارتقاء عند العرب ،	عندهم ، ١٧ العرب - حضارتهم قبل الاسلام - الفسائيون ، ١٩ ملوك كندة ،
٥٥ تزية ملكني الكرم والشجاعة عند العرب ، ٥٦ شجاعة العرب ويوم ذي قار ، ٥٧ أشعار في يوم ذي قار ، ٥٨ علوم العرب وحكمتهم ،	٢٠ ملوك كندة وخبر امرئ القيس ،
٥٩ علوم العرب بالطب والادب ،	٢١ عدنان وقحطان اصلا العرب ،
٦٠ حكم العرب وعماورياتها ، ٦١ العدل	٢٢ عدنان سلالته ونسب النبي (ص)
	٢٥ - (الفصل الاول - مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة)
	٢٧ مكة وحكومة قريش فيها ،
	٢٩ مكة حال قريش الحرية وقصة أبرهة
	٣١ - (الفصل الثاني - بيوتات قريش وخصائصها) ٣٣ الندوة والاشناق والغبية والاعنة ، ٣٤ السفارة والايثار والاموال المحجرة ، ٣٥ حلف الفضول وقصص نظام قريش
	٣٦ - (الفصل الثالث - ديانة أهل مكة

صفحة	صفحة
عند العرب ، ٦٢ أصول الفضائل	٦٣ - (الفصل السابع - جال خديجة
عند العرب اعدتهم للاسلام	والجمال عند قومها) ٦٤ أفضل ألوان
٦٣ - (الفصل السابع - جال خديجة	الحسان عند العرب ، ٦٥ استعداد
والجمال عند قومها) ٦٤ أفضل ألوان	العرب بحب جال الخلقة الى معرفة
الحسان عند العرب ، ٦٥ استعداد	جال الخالق ، ٦٦ و ٦٧ وصف
العرب بحب جال الخلقة الى معرفة	الجمال
جال الخالق ، ٦٦ و ٦٧ وصف	٦٨ - (الفصل الثامن - ثراء خديجة
الجمال	والثراء عن قومها) ٦٩ قریش -
٦٨ - (الفصل الثامن - ثراء خديجة	استعدادها للاسلام ، ٧٠ قریش -
والثراء عن قومها) ٦٩ قریش -	حيها للمجد والثروة ، ٧١ قریش -
استعدادها للاسلام ، ٧٠ قریش -	أسواقها بمجامع العرب ، ٧٢ صادرات
حيها للمجد والثروة ، ٧١ قریش -	بلاد الحجاز و وارداتها ، ٧٣
أسواقها بمجامع العرب ، ٧٢ صادرات	حضارة قریش ، ٧٤ التجارة في
بلاد الحجاز و وارداتها ، ٧٣	الجاهلية واصناف الاموال ، ٧٥
حضارة قریش ، ٧٤ التجارة في	النقود والابل في الجاهلية ،
الجاهلية واصناف الاموال ، ٧٥	٧٦ الرقيق والزروع والضرع في
النقود والابل في الجاهلية ،	الجاهلية ، ٧٧ الثروة بتاييها متحدة
٧٦ الرقيق والزروع والضرع في	في كل زمان
الجاهلية ، ٧٧ الثروة بتاييها متحدة	٧٩ - (الفصل التاسع - زواج خديجة
في كل زمان	الأول) ٨٠ الاشارة الى حياة
٧٩ - (الفصل التاسع - زواج خديجة	خديجة الجديدة
الأول) ٨٠ الاشارة الى حياة	٨١ - (الفصل العاشر - محمد (صلم)
خديجة الجديدة	
٨١ - (الفصل العاشر - محمد (صلم)	

صفحة

صفحة

قبل تزوج خديجة (٨٢ و ٨٣ غاية
الله تعالى بالعرب وبعبد المطلب
خاصة ، ٨٤ شرف عبد المطلب
بالنبي ، ٨٥ تاريخ مولد النبي ،
٨٦ خبر رضاع النبي ومرضعته
حليمة السعدية ، ٨٧ بركته عليها ،
٨٨ وفاة أم النبي ، ٨٩ كفالة أبي
طالب للنبي ، ٩٠ سفر أبي طالب
بالنبي الى الشام ، ٩٢ رؤية النبي
لحرب الفجار

٩٣ - (الفصل الحادي عشر - الحب
الشريف) ٩٤ الحب الشريف -
طبيعة النفس ، ٩٥ محبة خديجة
لنبي (صلم) ومزاياه

٩٦ - (الفصل الثاني عشر - تناول
هذا وقته) ، ٩٧ معرفة العرب
بالتبوة

٩٨ - (الفصل الثالث عشر - الخواطر
في قلب خديجة) ٩٩ أماني
خديجة وخواطرها في الزواج
بمحمد ، ١٠٠ ضرر التقليد
بالمادة ، ١٠١ خواطر المرأة
الكاملة

١٠٢ - (الفصل الرابع عشر - الزواج)

صفحة	صفحة
١٤٢ اساس ملك اسرائيل الوحي	١٠٣ طريقة خطبة خديجة النبي
والانبياء ، ١٤٤ امكان الوحي	١٠٤ الصداق وسنة العرب فيه
ووقعه ، ١٤٥ خديجة - استدلالها	١٠٥ - (الفصل الخامس عشر - بيت
على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم	خديجة بعد الزواج)
يلم ورقة	١٠٨ - (الفصل السادس عشر - العمل
١٤٦ - (الفصل الثاني والمثرون -	الروحي) ١١٠ ما نحن ؟
الايان والآيات وخوارق العادات)	١١٩ بحث في العمل الروحي
١٤٧ الايمان بالدليل ، ١٤٨ ايمان	١٢٢ - (الفصل السابع عشر - بدء
خديجة لم يكن بتأثير الزوجية ،	الوحي)
١٥٠ الاختلاف في الاستدلال -	١٢٨ - (الفصل الثامن عشر - عظم
الخوارق لاتغير سنن الكون ،	المينة باتساع المنة)
١٥١ الخوارق عدم توقف صحة	١٣٠ - (الفصل التاسع عشر - الدلالة
الدين عليها ، ١٥٢ تمذرا لا كتناه	العقبة على صدق الرسالة)
١٥٣ عناية الله بالنبي المختار	١٣٢ - (الفصل العشرون - شرح حكمة
١٥٤ - (الفصل الثالث والعشرون -	السيدة خديجة)
اعلان الدعوة واحتمال الاذى	١٣٨ - (الفصل الحادي والعشرون -
والثبات) ، ١٥٥ معاندة قريش	الدليل النقلي على صدق محمد)
وعدم اهدائها ، ١٥٦ الجاحدون	١٣٩ ورقة بن نوفل - ايمانه بالدليل ،
والمؤمنون ، ١٥٨ خلاصة الدعوة ،	١٤٠ استدلاله بكتب العهد الجديد
١٥٩ - (الفصل الرابع والعشرون -	على صدق محمد ، ١٤١ استدلاله
بعد عشرينين) ، ١٦٠ الجاحدون	بالعهد القديم على ذلك ،
والمؤمنون - مقابلة - وفاة خديجة	١٤٢ قول بني اسرائيل بالنبوة

